الحياء

الحياء هو الخجل، الحِشمة. وفي الاصطلاح الصوفي، اجتناب ما لا يرضاه سبحانه خشية منه ومخافة ومهابة. فاستناد هذا الحس إلى شعور الحياء المغروز في طبيعة الإنسان يجعل ذلك الشخص رابط الجأش وأكثر انسجاماً وموافقة للأدب والاحترام. ولا شك أن إنماء مثل هذا الحس، حس الحياء، عسير لدى المحروم منه أساساً، أو لدى المحيط الذي حرمه منه أو الأشخاص الذين أضاعوه.

ويمكن أن نقسم الحياء وفق ما يُفهم من الإشارات المذكورة أعلاه إلى:

١. الحياء الفطري، ويطلق عليه أيضاً الحياء النفسي، الذي يمنع الإنسان من اقتراف ما يعيبه أو يُستَعار منه.

٢. الحياء الناشئ من الإيمان، الذي يشكّل عمقاً مهماً للإسلام.

وما أن يتغذى الحياء الفطري بالحياء الموجود في روح الدين الإسلامي، حتى ينمو ويشبّ مشكّلاً سدّاً مانعاً عظيماً تجاه العار والعيوب. في حين لو أنفرد الإنسان بإحداها، قد يتزعزع تحت تأثير بعض الأحوال والشروط، وينقلب على عقبيه وربما ينهار كلياً.

نعم، إن ما في طبيعة الإنسان من حسّ التضايق والتحرج لا يدوم إن لم

يربّ بالشعور الإيماني الذي توضّحه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾ (العلق:١٤) وبمفهوم الإحسان الذي تعبّر عنه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيبًا﴾ (النساء:١) ذلك لأن وجود الحياء ونموه ودوامه مرتبط بالإيمان. وفي الصحيح: (مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى رَجُلٍ وَهُوَ يُعَاتِبُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ يَقُولُ إِنَّكَ لَتَسْتَحْيِي حَتَّى كَأَنَّهُ يَقُولُ قَدْ أَضَرَّ بِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ).[١] وفي حديث آخر أنه ﷺ قال: (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ).[٢] وعلى هذا يصح أن نقول: إن الحياء الفطري، -كالنوى الخيرّة الاخرى المخبوءة- في طبيعة الإنسان، ينمو ويستوي على سوقه بنسبة تغذّيه وتقويته بمؤثرات المعرفة التي تجعل الإنسان إنساناً، حتى يصبح بُعداً للحياة القلبية والروحية، ويقيم سداً مانعاً لكثير من نزوات النفس الطائشة. وبخلافه أي إن لم يُنَمَّ هذا الشعور بالإيمان والمعرفة، ولم يُقوّ بشعور الإحسان، ودُفع إلى الضمور والعماء بالانغماس في متاهات نفسانية، فلا محالة من وقوع ما يندى له الجبين في مستوى الفرد والمجتمع. والرسول الكريم ﷺ فخر الإنسانية، ومثال الحياء، ينوّه إلى هذا الأمر في قوله ﷺ : (إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ).[٣]

الحياء والحياة كلمتان متناظرتان، ومن هذا القرب فإن حياة القلب لا تكون إلاّ حسب ما فيها من قوة خُلُق الحياء الذي ينشأ وينمو بوابل من

---

١) البخاري، الإيمان ١٦؛ مسلم، الإيمان ٥٩؛ أبو داود، الأدب ٦.

٢) مسلم، الإيمان ٥٧،٥٨؛ النسائي، الإيمان ١٦. وانظر: مع اختلاف طفيف: البخاري، الإيمان ٣؛ أبو داود، السنة ١٤.

٣) البخاري، الأنبياء ٥٤، الأدب ٧٨؛ أبو داود، الأدب ٤٦؛ إبن ماجة، الزهد ١٧.

مطر الإيمان والمعرفة. نعم، إنما تستمر الحياة وتدوم بمقوماتها وكذا يوجد الحياء ويحيا بمقوماته، وإلاّ فلا محالة ينقرضان.

سُئل الجنيد عن الحياء، فقال: "رؤية الآلاء ورؤية التقصير، فيتولد من بينهما حالة تسمى الحياء".[1] أي أنه حالة قلق برؤية آلاء الله سبحانه المادية والمعنوية التي تنزل علينا بجنب تقصيراتنا ونواقصنا تجاهه سبحانه.

والحياء لدى ذي النون المصري هو الشعور بالتوحش الدائم في القلب من الأطوار غير اللائقة، والعودة إلى مراقبة توجهاتنا.[2]

ولدى آخر: تنظيم الإنسان لحياته وفق علمه باطلاع الله على السر والعلانية، واتخاذ معاملاته سبحانه له أساساً في حياته. فقد ورد في الأثر الآتي: "كان سليمان الداراني يقول قال الله عز وجل إنّك إن استحَيَيتَ مني أنسيت الناس عيوبَك".[3] ومن المفيد أن نذكّر هنا بقول الله سبحانه لسيدنا عيسى عليه السلام وهو : "يَا عِيسَى عِظْ نَفْسَكَ فَإِنِ اتَّعَظَتْ بِهِ فَعِظِ النَّاسَ وَإِلاَّ فَاسْتَحِ مِنِّي".[4]

وهناك تقسيمات أخرى مختلفة في موضوع الحياء، نذكر منها:

حياء "الزلة" المترشح من أطوار سيدنا آدم عليه السلام، لحين مجيء الأمر بالغفران.

وحياء "التقصير" كحياء الملائكة الذين يسبّحون الليل والنهار لا يفتُرون،

---

١) الرسالة للقشيري ٣٤٥.

٢) الرسالة للقشيري ٣٤٢: "الحياء وجود الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك تعالى".

٣) شعب الإيمان للبيهقي ١٥٠/٦؛ تاريخ دمشق لإبن عساكر ١٥٠/٣٤.

٤) الزهد لإبن أبي عاصم ٥٤؛ حلية الأولياء لأبي نعيم ٣٨٢/٢؛ المسند للديلمي ١٤٤/١.

ومـــع ذلك يقولون "ما عبدناك حـــق عبادتك".[1]

وحياء "الإجلال" لأرباب المعرفة الذين يقولون "مـــا عرفنـــاك حـــق معرفتك" مع بالغ عمقهم في التعظيم.

وحياء "الهيبة" لأرباب الروح والقلب الذين يستشعرون بـــه، فيحيـــون سائحين في أفق التجرد عن رغباتهم الشخصية.

وحياء "المنّة" لأصحاب اليقين الذين يعيشون كل آن في تلونات البُعـــد في القُرب والقُرب في البُعد، فيستشعرون منتهى القُرب مع أنهم في منتهى البُعد.

وحياء "عدم الوفاء" النابع من القلق من عدم إيفاء حق المحبـــة اللائقـــة بالمحبوب الحقيقي سبحانه.

وحياء "الإخلال بالإخلاص" لمن يحملون همّ عدم الاختيار الجيد عنـــد مقام الدعاء والطلب.

وحياء "الغيرة" للأرواح العالية التي تستشعر أنها في أحسن تقويم، فـــلا يقدر على ملاءمة هذه الحظوة مع أعمال تافهة لا تناسبها.

فالمرتبة الأولى للحياء، حياء يتولد من نظرة الإنســـان إلى نفسه بنظـــر الحـــق ســـبحانه. فإن محاسبة الإنسان لنفسه بمقاييس الله الرقيـــب عليـــه وموازينه يـــتـــولـــد منها حياءٌ مطبوع بالحـــذر، بحيث يعدّ مثل هـــــذا الإنسان حياً بمشاعره وأفكاره على الـــدوام.

المرتبة الثانية: حياء يتناسب تناسباً طردياً مع مشاعر القُربة والمعية الإلهيـــة،

---

١) المعجم الكبير للطبراني ١٨٤/٢؛ المستدرك للحاكم ٦٢٩/٤؛ شعب الإيمان للبيهقي ١٨٣/١.

وهذا ميسّر لمن يسيح في أفق ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد:٤) وقد قال سيد السادات ﷺ: (اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ قَالَ لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنَّ الإِسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ).[1]

المرتبة الثالثة: تتحقق بحدس في أعماق الشهود للحياة الروحية والقلبية، وتستمر إلى الأبد تحت جناح السير الروحاني في طريق الوصول إلى هدف ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ (النجم:٤٢). إذ حظ الإنسان ونصيبه من الإنسانية الحقة هو بقدر حظه من الحياء، فإن عجز سالك الحق عن التوجه وتنظيم سلوكه في جميع محاولاته، الإيجابية والسلبية، وفق الآخرة والغيوب، وعجز عن التفاني التام في المحوية ومن العيش في أدب جمّ، فإن وجوده عارٌ – من زاوية– بالنسبة إليه، وحمل ثقيل بالنسبة لغيره. وعلى هذا قيل:

فَلاَ وَاللهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ وَلاَ الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ[2]

الحياء خُلُق إلهي وسر من أسرار الله سبحانه، فلو عرف الناس أينما تعلق الحياء، لكانت حركاتهم وسكناتهم أكثر دقة وحساسية. وننقل هذه الواقعة لتنوير ما ذُكر:

يحاسب الله يوم القيامة شيخاً فيقول: لم اقترفت هذه الذنوب؟ فينكر الشيخ ذلك بأنه لم يذنب. ويقول له أرحم الراحمين: خذوه إذن إلى الجنة. فيستفسر

---

١) الترمذي، الرقائق ٤٢٤؛ المسند للامام أحمد ٣٨٧/١.

٢) ديوان الحماسة لأبي تمام ٢٦/٢.

الملائكة: يا رب إنك أعلم بما أذنب. فيقول الله لهم: ولكنه من أمة محمد، نظرت إلى شيب رأسه ولحيته فاستحييت أن أُطلعه على ذنوبه. وحسب رواية كنز العمال: أن جبريل عليه السلام عندما أخبر النبي ﷺ الخبر بكى، "فقيل: يا رسول الله ما يبكيك؟ قال: "بكيتُ لمن يستحي الله منه ولا يستحي من الله".[1]

الخلاصة:

إِنَّ الْحَيِيَّ مِن أَسْمَاءِ الْإِلَهِ وَقَدْ جَاءَ التَّخَلُّقُ بِالْأَسْمَاءِ فاحظَ بِهِ[2]

اللّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع

ومن دعاء لا يُسمع ومن نفس لا تشبع.

وصلّ اللّهم على خير خلقك محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين آمين.

---

١) كنز العمال لعلي المتقي ٦٧٣/١٥، الحديث ٤٢٦٨٠.

٢) انظر: أبو داود، الحمام ١، الوتر ٢٣؛ النسائي، الغسل ٧. (قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا).

الشكر

الشكر هو الامتنان، الرضا تجاه الإحسان، أياً كان ذلك الإحسان. وفي الاصطلاح هو استعمال ما مُنح به الإنسان من شعور وتفكر وأعضاء وجوارح في الغايات التي خُلقت لأجلها. والشكر مثلما يوفّى بالقلب واللسان يوفّى كذلك بجميع الأعضاء.

الشكر باللسان؛ يتحقق بالاعتراف بأن أنواع اللطف وأشكال النعم كلها آتية من الله تعالى، ونفي لجميع منابع القوى والقدرات والإحسان الموهومة. نعم، إنه سبحانه هو الذي قدّر الحسنات والخيرات وأعدّ أسبابها من المبدأ إلى المنتهى، كما أنه هو الذي أرسلها أيضاً في وقتها المناسب. وحيث إن الله سبحانه هو قاسِمُها ومجريها وموجِدُها، وخالِقُها في موعدها ومعدّها أمامنا سفرات سماوية، فهو في النتيجة أحق بالشكران والامتنان. إذ التغافل عن الله سبحانه والتعلق بالأسباب، والانقياد وتوجيه الامتنان لها، يشبه مَن يُغرق الخادم الذي يضع السفرة أمامنا بالرشوة والإتاوات، ويتغافل عمن هيأها وأرسلها إلينا، فينطبق عليه فحوى الآية الكريمة: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم:٧). نعم، فهؤلاء هم الجهلاء الناقصون ناكرو الجميل العاجزون من حيث المعرفة والعلم عن رؤية ما وراء الأسباب فينظرون إليها وحدها.

الشكر بالقلب؛ هو معرفة جميع النعم الظاهرة والباطنة المنتفَع بها، من الله تعالى، ومن ثم توجيه الحياة وإقامتها وفق هذا المفهوم. وهذا الشكر القلبي في الوقت نفسه يؤسس الشكر الذي يُؤدّى باللسان والجوارح، كما هو مضمون الآية الكريمة: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان:٢٠) التي تبين أبعاده النوعية، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم:٣٤) الذي يشير إلى أبعاده الكمّية اللامتناهية.

أما الشكر بالجوارح فهو استعمال كل عضو وكل لطيفة وفق الغاية التي خُلقت لأجلها، وأداء ما يخصّ كلاً منها من العبودية والطاعة.

وهناك من يرى أن شكر اللسان هو بالأوراد والأذكار، وشكر القلب هو باليقين والاستقامة، وشكر الجوارح هو بالعبادات والطاعات. وحيث إن الشكر متعلق بالإيمان والعبادة تعلقاً وثيقاً، فقد قال عنه الأفاضل ناظرين لشموله: أنه نصف الإيمان، والصبر نصفه الآخر وقرنوهما معاً.

ولقد أمر الله سبحانه في كلامه الجليل، بالشكر في مواضع كثيرة وعدّه غاية الأمر والخلق كما في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] ووعد الشاكرين بالجزاء الحسن وتوعّد العاقين بالعقاب كما في قوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٤) و﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم:٧). زد على ذلك فقد أطلق سبحانه

---

١) انظر السور: البقرة: ١٨٥،٥٦،٥٢؛ آل عمران: ١٢٣؛ المائدة: ٨٩،٦؛ الأنفال: ٢٦؛ النحل: ٧٨،١٤؛ الحج: ٣٦؛ القصص: ٧٣؛ الروم: ٤٦؛ فاطر: ١٢؛ الجاثية: ١٢.

وتعالى على نفسه إسم (الشَّكور)[1] وربط سبيل بلوغ المنبع الأصل للنِعَم كلها بالشكر، وأثنى على من له القدح المعلى في الشكر سيدنا إبراهيم بـ﴿شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ﴾ (النحل:١٢١) وعلى سيدنا نوح: بـ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء:٣).

وعلى الرغم من أن الشكر عمل جليل ورأسمال ثمين، فإن العاملين به بمعناه الحقيقي ليسوا كثيرين حسب فحوى الآية الكريمة: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ:١٣). ومع أن الذين يكون الشكر ديدنهم يتقلبون دائماً به، بل يقضون أعمارهم كلها شاكرين، بنفحات قوله ﷺ (أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا)[2] إلاّ أن عددهم قليل جداً.

نعم، إن رائد الشكر وفخر الإنسانية ﷺ كان في مقدمة هذا العمل، الجليلُ قدره والقليلُ العاملون به. إذ كان ﷺ شاكراً في أحواله كلها، في قيامه وقعوده، ويوصي بالشكر كل مَن أتاه، بل كان ذكره الدائم صباح مساء، هذه الكلمات النورانية: (رَبِّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ).[3] وحيث إن الشكر هو امتنان المرء للمنعم الذي أنعم عليه، وتوجهه إليه بالمحبة والود، وإقراره بأن الأفضال كلها منه تعالى فقوله ﷺ هذا، هو أوجز تعبير عن الشكر.

نعم، هناك من يشكر على الخبز والطعام، وعلى الأولاد والعائلة، وعلى

---

١) انظر السور: فاطر: ٣٤، ٣٠؛ الشورى: ٢٣؛ التغابن: ١٧.

٢) البخاري، التهجد ٦؛ مسلم، المنافقين ٧٩-٨١، الترمذي، الصلاة ١٨٧.

٣) النسائي، السهو ٦٠.

المسكن والمأوى. وهناك من يشكر مع ما سبق، على الوجود والصحة والعافية، وهناك من يتقدم خطوة إلى الأمام فيشكر على الإيمان والعرفان والأذواق الروحانية والاطمئنان. وهناك من يشكر على الشعور بالحمد والمنة لله. فالإنسان بهذا المعنى الأخير إذا ما دخل في دائرة الشكر الدائمة (الدائرة الصالحة) باتخاذ عجزه وفقره رأسمالاً له، يكون من الشاكرين حقاً. وقد روي في حديث شريف: (أن سيدنا داود عليه السلام قال: إلهي، كيف أشكرك، وشكري لك نعمة من عندك؟ فأوحى الله إليه: الآن قد شكرتني).[1] واعتقد أن هذا هو ما يراد التعبير عنه بـ:(مَا شَكَرْنَاكَ حَقَّ شُكْرِكَ يَا مَشْكُورُ).

إن الشكر الحقيقي يتحقق بمعرفة النعمة معرفة تامة. لأن منبع النعمة والثناء الجميل للمنعم مرتبط على الأغلب بمعرفة النعمة. إن ما يؤكد عليه دائماً هو أن ما يهيؤه الإيمان والإسلام ويبيّنه القرآن الكريم هو الخط الممتد من معرفة النعمة إلى قبولها، ومنه إلى الحق سبحانه. نعم، إن ألطاف الله سبحانه علينا إنما تُعرف أكثر وتتوضح أكثر بنور الإيمان وبمعايشة أوامر الإسلام، فتتحول إلى حالة يُحسّ بها ويُستشعر، وعندها يتبين أنها من عطاء الله سبحانه، رحمةً لعجزنا وفقرنا وبناءً على احتياجنا، تفضلاً منه تعالى من دون مقابل. وهذا ما يفجّر فينا مشاعر الثناء الجميل على المنعم بتلك الألطاف والآلاء. فنوفي حقّ واجب الشكر والثناء المنبعث بانفعال في أعماق روحنا امتثالاً بحقيقة الأمر الإلهي: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:١١).

وفي الحقيقة إن في كل إنسان شعوراً بالامتنان تجاه مَن يحسن إليه. ولكنه

---

١) الجامع للأحكام القرآن للقرطبي ٣٩٨/١، ٣٤٣/٩؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٤١/٢، ٣٥٠/٣.

لا يستشعر بالنعم التي تُغدَق عليه، وهو غارق فيها، كالأسماك السابحة في أعماق الماء، لحين تيقظ هذا الشعور فيه وتوجيهه إلى المنعم. بل أكثر من هذا كثيراً ما يحيل تلك النعم إلى أسباب تافهة حوله. فإن أطلقنا على عدم رؤية النعم التي تحيط بنا، اسم العمى والصمم وانعدام الشعور، فإن إحالة ما لا يُحصى من النعم التي ننالها إلى الأسباب العمياء والصماء التي لا شعور لها انحرافٌ بلا شك. فقوله ﷺ: (مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ)[1] أو (مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ)[2] ينظر إلى الشق الأول ويذكّر بأهمية الشكر المطلق. أما الشق الثاني فتبينه الآيات الكريمة مذكّرة بالتوحيد الحقيقي: ﴿وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة:١٥٢) ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ (العنكبوت:١٧).

وعلاوة على ذلك يمكن أن ندرس الشكر ضمن هذه الأقسام الثلاثة، من حيث الخصائص التي تشكّله:

١. شكر تجاه ما ارتضاه الجميع من نِعم، العوام منهم والخواص، المسلم وغير المسلم. فيحبونها ويرغبون فيها. هذا الشكر واضح جداً لا داعي للإطالة فيه.

٢. شكر تجاه ما يبدو غير محبوب ظاهراً، أي وجهه الظاهري ثقيل كريه، وإيفاء هذا النوع من النعم حقه من الشكر عسير، إلاّ من يستطيع أن يطّلع على ما وراء ستار الأحداث، فهو لطف إلهي، يتلون صاحبُه بألوان من الرضى والقبول.

---

١) المسند للامام أحمد ٤/٢٧٨، ٣٧٥.

٢) أبو داود، الأدب ١١؛ الترمذي، البر ٣٥؛ المسند للامام أحمد ٢/ ٢٥٨، ٢٩٥، ٣٨٨، ٣/٣٢، ٧٤.

٣. شكر الذين يقضون حياتهم في مدار المحبوبية، فلا ينظرون إلى النعم إلاّ من زاوية المنعم، بإحساسهم ألطافه وآلائه بعظمته سبحانه. ويحيون في الحظوظ العميقة للشهود.. فعبوديتهم ترنيمة أخرى للذوق، وحياتهم القلبية طوفان آخر للعشق والشوق، وعلاقتهم مع الحق سبحانه، في حظوظ الشهود العميقة ضمن نظام تمكين آخر. فهؤلاء يقيدون الموجود، ويصيدون المفقود. ويتلوّنون في كل آن بألوان الفيوضات المقدسة والقدسية التي كسبوها، ويسبرون الأعماق في طريق سيرهم. ويقذفون بشِباك النظر لاقتناص الواردات، فيصيدون ويمتلؤن ويفيضون.

اللّهم اجعلنا من عبادك المخلَصين المحبوبين المقرَّبين، وصلى الله على سيد المخلصين المحبوبين المقربين وعلى آله وصحبه أجمعين.

الصبر

الصبر يعني احتمال الأذى والألم أمام الحوادث والوقائع التي يصعب تحملها ويتعسر تجنبها. والقرآن الكريم يأمر بآياته الجليلة بالصبر، صراحةً كقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ﴾ (البقرة:٤٥) و﴿اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ (آل عمران:٢٠٠).. أو ينهى عن ضده كقوله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَعْجِل لَهُمْ﴾ (الأحقاف:٣٥) و﴿فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ (الأنفال:١٥).. أو يثني على أهله كقوله: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ (آل عمران:١٧).. أو إيجابه سبحانه محبته لهم كقوله: ﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٦).. أو رفع درجات الصابرين بمعيته سبحانه لهم كقوله: ﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة:١٥٣).. أو إرشاده لهم كقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (النحل:١٢٦).. أو بشارتهم بالتسلي وإحراز درجات في العقبى كقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٦).. أو تذكيرهم بنصره ومدده كقوله: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ..﴾ (آل عمران: ١٢٥).. وأمثالها من الآيات البينات التي تقرر أن الصبر عمل قلبي جليل، يلفت الله سبحانه وتعالى إليه الأنظار بأوجهه المختلفة.

وإذا نظرنا إلى الصبر من زاوية أخرى؛ فإن الشكر نصف الإيمان،

ونصفه الآخر هو الصبر.[1] ومما يؤيد هذا المعنى اللطيف، ما قاله سيد الأنام ﷺ في حديث شريف ذي مغزى عميق: (عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّـهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلاّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ).[2]

هذا، وينقسم الصبر، من حيث ما يُصبَر عليه، إلى الأقسام الآتية:

١. الصبر على أداء الطاعات، بمعنى تحمل مشاق العبودية لله.

٢. الصبر عن اجتناب المعاصي، أي تجاه ما تهشّ له النفس من وسائل الإثم.

٣. الصبر على البلايا الأرضية والسماوية، والذي يتضمن الرضا بقضاء الله وقدَره.

٤. الصبر على نهج الاستقامة والحفاظ عليه دون تغيير وتبـديل، تجـاه مفاتن الدنيا.

٥. الصبر على الزمن فيما يحتاج إلى زمان ووقت.

٦. الصبر على لواعج شوق الوصال لحـين بلـوغ أمـر ﴿ارْجِعِـي﴾ (الفجر:٢٨).

بعض هذه الأقسام متعلقة بإرادة العبد (أي كسبية) إلاّ أن البعض الآخر لا دخل للإنسان فيه قطعاً.

ولقد بُحث الصبر ضمن ستة أقسام من حيث كيفيته وتحققه:

---

١) انظر: شعب الإيمان للبيهقي ١٠٩/٤.

٢) مسلم، الزهد ٦٤.

١. الصبر لله، أي لأجله تعالى، وهو أُولى مراتب الصبر.

٢. الصبر بالله، أي العلم بأنه تعالى هو المصبِّر، وهو أسبق بخطوة من الأولى.

٣. الصبر على الله، بعدم الاستعجال تجاه التجليات الجمالية والجلالية للحق تعالى، قائلاً: (لله في كل شيء أسرار وحكم).

٤. الصبر في الله، أي استواء القهر واللطف في الطريق إلى الله (لا يفرّق بين حال النعمة والمحنة). لهذا الصبر ميزة خاصة، ويسبق الأقسام الأخرى.

٥. الصبر مع الله، أي البقاء معه تعالى مع مراعاة أسرار المقام الذي هو فيه من حيث خصوصية المعية والقرب.

٦. الصبر عن الله، وهو صبر عشاق الحقيقة، الذين عزموا على التحمل عن الوصال وهم بين الخلق.

وعلاوة على ما سبق، فمن قائل: إن الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب. ومن قائل: إنه لا يفرق بين حال النعمة والمحنة.. ومن قائل: العيش رغم طبعه ونزعات نفسه.. ومن قائل: استطابة القهر واللطف على سواء.. ومن قائل: تلقي ما جاء به الكتاب والسنة كبطاقة دعوة إلى الجنة.. ومن قائل: التضحية بالغالي والنفيس في سبيل المحبوب. ولكلٍ مما سبق محمِلِه الخاص وفهمه المعين.

وعلى هذا يطلق على من يتحمل تبعات أية مسألة كانت بـ "الصابر"... وعلى من أصبح الصبر مَلَكَة لديه بـ"المصطبر"... وعلى المكتمل في الصبر بسكون وراحة وجدان بـ "المتصبّر" و المعتاد على الصبر

القادر عليه بـــ"الصبور" وعلى كثير الصبر، أكثر من المعتاد بـــ"الصبّار".

فضلاً عن أننا نرى أن المفسرين الإشاريين يذكرون الصبر بربطهم بـــين بعض الآيات من القرآن الكريم فيقولون مثلاً في قولـــه تعـــالى: ﴿اصْـــبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ (آل عمران:٢٠٠) أي:

اصبروا: بنفوسكم على طاعة الله تعالى، وصابروا: بقلوبكم على البلوى في الله، ورابطوا، بإدامة العشق والاشتياق لله تعالى.

أو: اصبروا في الله، وصابروا بالله، ورابطوا مع الله.

أو قصدوا، بـــ"اصبروا"، اســـتقامة الـــشعور والفكـــر تجـــاه الـــنعم. وبـــ"صابروا" عزم التحمل تجاه الشدائد والمصائب. وبـــ"رابطـــوا" إدامـــة الرابطة مع الله رغم كل شيء.

ومعنى آخر لدى أرباب الحقيقة: إن الصبر هو معرفة كل شيء مـــن الله تعالى، خيره وشره، فإن كان ما يبدو للعقل من الفعل حسناً شكر وإن كان مكروها رضي.

هذا وليس من الشكوى عرض الإنسان حاله على الله تعالى عند نـــزول المصائب التي لا يمكن دفعها، أو عند القيام بالتكاليف الشاقة، أو عند الخوف من ارتكاب الآثام التي وقع فيها الكثيرون.. فهذه كلها تـــضرع وتوســـل وتوكل وتسليم، كل حسب نيته؛ فمثلاً تفجّع سيدنا أيوب عليه السلام لربه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٣) وتـــأوّه ســـيدنا يعقـــوب عليه السلام بـــ: ﴿إِنَّمَا أَشْـــكُو بَثِّي وَحُـــزْنِي إِلَى اللهِ﴾ (يوسف:٨٦). كل ذلـــك دعاء وتضرع ذو بُعد استعطافي. ولهذا أثنى سبحانه على سيدنا أيوب بقوله:

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص:٤٤) أوَ ما قبل الله كلامه المترع بالتوكل والتسليم شكراً في ذات الصبر؟

إن الصفة المميزة التي لا يبلغها أحد، للرسل العظام – في المقدمة– والأنبياء الكرام والأصفياء والأولياء، هي أنهم قد عاشوا الصبر وامتثلوه بأنواعه وأشكاله، وعاشوا بين الناس بالصبر عن الله رغم ارتباطهم المتين مع الله سبحانه. أمَا يقول فخر الإنسانية وشمس سماء النبوة وسيد السادات ﷺ لما سُئل: (أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً قَالَ الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ).[1]

نعم، الصبر حال أصحاب الذرى وهو منبع قوة لسالكي طريق الذرى.

فالذين بلغوا الذروة ونالوا هذا المقام يمتثلون – بمقتضاه– جميع أنواع الصبر وبأفضل صورة لقاء هذه الحظوة، أما مَن قُدّر لهم بلوغ الذروة فإنهم يبلغون بالتحمل وتشغيل محرك الصبر والمعاناة ما بلغه غيرهم بألف نوع من أنواع العبادات. كما ورد في الحديث الشريف (إن الرجل لتكون له ثمّ الله المنزلة فما يبلغها بعمل فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها).[2]

ولهذا يصح القول: كما أن البلاء رحمة كامنة تجاه ثقل المسؤولية وتبعاتها وضغط المعصية، فالموقف الذي ينبغي اتخاذه تجاه هذه الأمور هو لبّ تلك الرحمة. ولب هذا اللب وأساسه هو ألاّ يدري أحد بهذا الحمل الثقيل ولا بهذا التحمل والصبر.

---

١) الترمذي، الزهد ٥٦؛ ابن ماجة، الفتن ٢٣؛ الرقاق للدارمي ٦٧.

٢) الصحيح لابن حبان ١٦٩/٧؛ المستدرك للحاكم ٤٩٥/١؛ مجمع الزوائد للهيثمي ٢٩٢/٢؛ شعب الإيمان للبيهقي ١٦٤/٧.

وما أجمل ما يقوله "فضولي" بهذا الخصوص:

لا تتأوه من بلاء العشق وأنت العاشق

فلا تنبّه الأغيار بآهاتك وأنّاتك

نعم، على الإنسان أن يحترق كالموقد الساكن في موضعه دون إظهار غمّه للأغيار. فيثبت في مكانه منسحقاً تحت ثقل كالجبال، دون أن يبث أحزانه لغيره.

ويلخص مولانا جلال الدين الرومي في مثنويه الصبر ضمن هذه المقاييس بالآتي:

"حبة الحنطة لكي تكون غذاءً للإنسان وقوةً ممدة له، وعلاجاً لمرضه، ونوراً لبصره، وركيزة لحياته، لا بد أن تُدفن تحت التراب وتجري عليها عمليات لتتحول شطأً حتى تستوي على ساقها ثم تُحصد وتُسحق في البيدر ويعزل عنها التبن، وتطحن في الطاحونة وتعجن في المعاجن، وترمى في النار لتصبح خبزاً يؤكل، ثم تمضغ تحت أسنان الإنسان وتنزل إلى معدته".

وكذلك الإنسان لكي يكون نافعاً للإنسانية يلزم أن يمرر من أنابيق مختلفة ويصفّى دفعات، وإلاّ يظل في الطريق دون تحقيق ما هو مجهز به من القابليات الإنسانية.

بَنْدَه هَمَانْ بهْ كِه بَلاَكَشْ بُوَدْ

عُودْ هَمَانْ بهْ كِه دَرْ آتَشْ بُوَدْ [1]

---

١) ديوان شمس تبريز لمولانا جلال الدين ٣٦٢، الغزل رقم ٩٩٤، ص١٢٨٤.

أي: العبد الحق هو من يتحمل البلايا، وعود الخشب الجيد هو الـــذي يحترق جيداً.

والصبر بجميع أنواعه ذروة في العبودية، وذروةُ هذه الذروة الرضـــا، ولا مرتبة تفوق الرضا عند الله كما أعتقد.

اللّهم إني أسألك الرضا بعد القضا وبرد العيش بعد الموت
ولـــذة النظر إلى وجهك وشـــوقاً إلى لقائك.
وصلّ وسلم على سيدنا محمد الراضي الْمَرْضِيِّ
وعلى آلـــه وأصحابه ذَوي القدر العليِّ.

الرضا

الرضا هو عدم اهتزاز قلب الإنسان للبليّات التي تصيبه، ومقابلة تجليات القدر بارتياح ضمير. وبتعبير آخر: بقاء جهاز الفؤاد والوجدان في سكون واطمئنان مما يتألم منه الآخرون ويمتعضون منه. وفي هذا الصدد توضيح آخر هو أن الرضا ارتياح القلب واطمئنان النفس بقضاء الله وتقديره ومعاملاته بتحمّل آلامها وشدائدها وغموضها حسب تلقيات نفوسنا.

إن طريق الرضا إرادي ابتداءً، ولكنه هدية إلهية فوق الإرادة والاختيار، حيث إنه موهبة الحق سبحانه لمحبيه. ولهذا لم يؤمَر به كالصبر في القرآن الكريم والسنة النبوية، بل ذُكّر كوصية فحسب.[1] وفي الحقيقة أن ما يروى كحديث: (مَن لم يرضَ بقضائي ويصبر على بلائي، فليلتمس رباً سواي)[2] معلول من حيث قواعد الحديث. ويرى قسم من أهل الله أن الرضا من جملة المقامات وهو نهاية التوكل والتسليم، وآخرون يرون أنه ليس كسبيا بل هو وارد يظهر أحياناً ويغيب أخرى، كأحوال السالك الأخرى.. وآخرون وفيهم الإمام القشيري يرون "أن بداية الرضا مكتسبة للعبد، وهي من جملة

---

١) انظر السور: التوبة:٦٢؛ الممتحنة:١؛ البينة:٨.

٢) المعجم الكبير للطبراني ٣٢٠/٢٢، المعجم الأوسط ٢٠٣/٧، ١٩٢/٨؛ شعب الإيمان للبيهقي ٢١٨/١.

المقامات، وأما نهايته فهي من جملة الأحـــوال وليست بمكتسبة".[1]

أما الحديث الشريف الوارد عن رسول الله ﷺ: (ذَاقَ طَعْمَ الإيمَانِ مَـــنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالإسْلامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً)[2] فيشير إلى أن مبدأ الرضا إرادي متعلق بكسب العبد ونهايته هبة إلهية مرتبطة بمشيئته الخاصة سبحانه.

فالرضا بألوهيته سبحانه، هو محبته وتعظيمه، والتوجه إليه، ورجاء كـــل شيء منه وحده.. والرضا بربوبيته، مقابلة ما قدّره سبحانه لنا ودبّر برحابة صدر، وعدم الاستعجال عند الصدمة الأولى التي تبـــدو مؤلمـــة، واختيـــار الصمت لحين انقضائها، والإيمان به والتوكل عليه في تـــصرفه في العبـــاد، والارتياح بكل ما يفعل به ويقدره له.

أما الرضا بنبوة الرسول ﷺ، فهو كمال الانقياد له، والتسليم المطلق له. وتفضيل هديه وهدايته على هوى الإنسان ونزواته، وتسليم قيـــاد منطقـــه وزمام عقله إلى أمره، وجعل ذكائه مرآةً لفطنته النبوية الواســـعة المحتـــضنة للوحي الإلهي متوجهاً إلى الأصل دون الظل.

أما الرضا بالإسلام، فيلخص استناداً إلى الآية الكريمة ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْـــرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (آل عمـــران:٨٥) وهو جعل الدين حياةً للحيـــاة الفردية والعائلية والاجتماعية والإدارية.

وقد يدفع البحث عن مثل هذا الرضا الإنسانَ في بعض الأوقات وتحت ظروف خاصة، إلى الانفراد والاغتراب، رغم أنه يعيش بين الناس. ولكـــن

---

١) الرسالة للقشيري ٣٠٩.

٢) مسلم، الايمان ٥٦، المسند للامام أحمد ١/٢٠٨.

الحقيقة هي أن الواصلين إلى المعية الإلهية والسائرين على نهج النبي ﷺ، لا يظلون منفردين ولا يغتربون، إذ لا استيحاش ولا انفراد لمن يحيا في جو من "الأنس بالله". بل باغترابهم الموقت يتقربون أكثر فأكثر إلى الحق سبحانه، ناهيك عن الاستيحاش والانفراد. فكلما اغتربوا هبّت عليهم نفحات الأنس أكثر فطربوا وانشرحوا واستشعروا نسائم الخلود. وقد سمعنا كثيراً قولهم بانفعال "اللّهم زدني اغتراباً، ولا تكلني إلى ظلم ما يبعدني عنك. وأنزل معيتك في قلبي".

وكما ذكرنا آنفاً أن حقيقة الرضا منحة إلهية وأسبابه متعلقة بإرادة الإنسان، فلا يبلغ الإنسان أفق الرضا إلاّ بعمق الإيمان وجدية العمل، وسعة الشعور بالإحسان وبمروره من فصول التوكل والتسليم والتفويض.

ولما كان الحصول على الرضا عزيزاً وكسبه بإرادة الإنسان صعباً، فلم يأمر به الله سبحانه مباشرة، وإنما أوصى به وندب الخلق إليه وأثنى على الذين بلغوا تلك المرتبة ورفع من شأنهم.

وإذا أخذنا الأمر من زاوية الأسباب، فالبلوغ إلى مرتبة الرضا يتطلب؛ الجد في معاملات العبد مع ربه، وأخذ النعم التي تُغدق عليه من دون طلب وسائلَ شكر وتحدثاً بالنعمة، والتعالي على أنواع الحرمان برحابة صدر، وأداء حق مسؤولياته بانشراح تام حتى لو كان يتقلب تحت قبضة الاستيحاش والانفراد والانقباضات، وقبول أوامر الحق سبحانه ونواهيه بسرور وحبور كأنها دعوة إلى "ليلة زفاف"... وأمثالها من الأسس، إلاّ أن أهم ركن للرضى من حيث المبدأ هو توجّه الفرد إلى الله في قيامه وقعوده

بشعوره وفكره وسلوكه، والانتباه له والانشراح بـــه، وإنـــشاؤه وســـائل متجددة كل يوم للوصول إلى معرفة أعمق للألوهية.

والرضا والمحبة لهما أهميتهما في العقبى وما بعدها لاحتضان سعتهما الدنيا والعقبى. بينما تأثير الخوف والرجاء على الإنسان أمر دنيوي. فتنحصر أهمية هذين الشعورين في دفع خيبة الأمل والشعور بالأمان التام، ولا وجوه لهمـــا في الآخرة إلاّ ثمارهما.

والرضا منبع مهم للاطمئنان سواء في الدنيا أوالآخرة. ولا يعني هـــذا أن الذين بلغوا هذه المرتبة قد تخلّصوا كلياً من الآلام والمكاره، بل في طريق الرضا أمور تسع الدنيا ظاهرُها كريه ومفجع، إلاّ أن أبطال الرضا يتلقونَها رحمـــة، فتُقْلَب السمومُ التي يتجرعونها ترياقاً والمشاق التي يتعرضون لها تبادل عـــشق بين محبوبين، وموادّةً رابحة بينهما.

وفي الحقيقة أن طريق الرضا أقصر الطرق وأكثرها أمنا رغم ما فيها من مصاعب ومشقات. إذ يمكن أن يوصل الإنسان أحيانـــاً بحملـــة واحـــدة وبنفحة واحدة إلى ذرى كمالات الإنسان. والأمر هكذا، سواء كـــان السالك مندفعاً من جهة إلى أخرى بكل قواه ونشاطه، أو مطالعاً الكون كتاباً مفتوحاً أمامه، وهو يتنفس أنفاس الحق تعالى في كل شيء، أو كان مهيض الجناح تحيطه المحالات ويجول بنياته في سماء غاياته، ولو في بيتـــه وهو على كرسيه يتأمل لتحقيق اهدافه السامية.

ونتيجة الرضا سرور وانشراح ساحر يهبّ من رضـــا الـــرب الجليـــل يتناسب طردياً مع عظم آمال الإنسان ورجائه. فهذا ليس ذوقـــاً يحـــصّله

القرب، ولا لذة تُشعرها العبادات والطاعات، ولا تلذذا وجدانيا نابعاً من الصراع مع الآثام، بل هو حلاوة روحانية ملونة بالأمل وعمق الرجاء ومطبوعة بالتمكين والحذر.. فهو نفحة رحمة، وتوجّه خاص منه تعالى مباشرة إلى مقام الرضا.

ومرتبة الرضا، من حيث إنها توجّه النظر جميعه إلى الحق تعالى فإن اتخاذها وسيلة للأذواق واللذائذ والحظوظ أو أنواع من الاستشفاف والترقبات، قلة احترام واستخفاف بذلك المقام الذي أساسه الصفاء والنقاء. وفي الحقيقة يصح أن نرى الشيء نفسه في جميع الأحوال والمقامات التي ذكرناها ضمن الأعمال القلبية. نعم، إن حبّه سبحانه، وترقب رضاه في كل الأحوال، ينبغي أن يكون لأجله وحده وليس لأي سبب من الأسباب. ولقد قال أبطال عالم الروح والقلب منذ القدم إلى يومنا هذا أقوالاً مشابهة ومتممة ومتقاربة حول الرضا فمثلاً:

يقول ذو النون المصري: علامة الرضا هي ترك العبد إرادته بتفضيل إرادة الحق سبحانه قبل قضائه الأشياء، والعلم بأن الخيرة فيما اختاره الله، بعد قضاء الأشياء، وعدم الانزعاج بل يظل حبه في جيشان وهو يتلوى في قبضة المصائب.[1]

ويقول الحسين بن علي رضي الله عنهما: كفّ العبد عن كل ما يخالف إرادة الله واختياره، وعدم تمني أي شيء سواه.[2]

---

١) "ثلاثة من أعلام الرضا: ترك الاختيار قبل القضاء، وفقدان المرارة بعد القضاء، وهيجان الحب في حشو البلاء". الرسالة للقشيري ٣١١. وانظر أيضاً: كشف الخفاء للعجلوني ٤٧٨/١.

٢) "من اتكل على حسن اختيار الله تعالى له، لم يتمن غير ما اختاره الله عز وجل له". الرسالة للقشيري ٣١١.

ويرى أبو عثمان: أن الرضا هو تلقي تجليات الحق سبحانه الجمالية والجلالية بالارتياح، وقبول الجلال عينَ الجمال والجمال عين الرحمة.[1] حيث يشير بيان الرسول ﷺ المنوّر إلى هذا: "وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ".[2]

نعم، إن الرضا على قضاء الله وحكمه ولّما يتحقق بعدُ هو عزمٌ على الرضا، أما الرضا الحق فهو الرضا عند صدمة النازلة وتحمّلها.

ونذكر أدناه بعض الملاحظات التي يمكن إرجاعها إلى الأقوال السابقة حول الرضا:

١. عدم الانزعاج من أي حكم وتقدير مصدره الألوهية والربوبية.

٢. تلقّي كل ما يرد من الله بانشراح وسرور.

٣. الارتياح إلى رياح القدر أينما هبّت.

٤. المحافظة على ضبط موازنة القلب وتوازنه حتى تجاه أفجع الحوادث وأشدها.

٥. عدم التوجّع من المصائب متفكراً بتقدير الله في لوح الحقيقة المحفوظ.

هذا ويمكن الاسترسال في البحث عن أمور أخرى في هذه الأسس الثانوية التي تخص الرضا، إلاّ أننا ننهي هذا الفصل ولا نزيد لئلا نشتت الموضوع.

الرضا لدى عامة الناس، هو عدم الاعتراض على التقدير الإلهي والتجليات بحقهم.

---

١) نفسه ص ٣١١ حيث قال: "الرضا قبل القضاء عزم على الرضا، والرضا بعد القضاء هو الرضا".

٢) النسائي، السهو ٤٦٢؛ المسند للامام أحمد ١٩١/٥.

والرضا لدى الذين بلغوا الأعماق في المعرفة هو استقبال ما قضى الله وقدَّره بالترحاب.

أما رضا أرباب القلوب والروح الذين استعلوا على أنفسهم فهو ترصّد إرادته وتوجهه تعالى فحسب صارفاً النظر عن نظرات نفسه وفكره.

فالآية الكريمة ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر:٢٧-٣٠) تتضمن المراتب كلها وهي بماهية جواب على الأمور التي تتوجه إلى جميعها تقريباً.

نعم، يُفهم من هذه الآيات الكريمة أن بلوغ مرتبة الرضا مقيّد بتوجّه النفس إلى الله تعالى، هذا التوجه لا يُقيَّم باعتبار علاقتنا بالزمان والمكان وأبعادنا الدنيوية والأخروية، بل بتجلي الحق سبحانه وتوجّهه الذي يسمو على الأزمان والأمكنة. ولهذا يصح أن نقول: إن هذا التوجه سيتجلى بأبعاد اللُّطف.. ففي الدنيا بالتوكل والتسليم والتفويض.. وفي أثناء الوفاة باطمئنان القلب والانبساط إلى الرب الجليل.. وما بعد البعث بأخذ مكانته بين عباد الله الصالحين ودخول الجنة.

وإذا أخذنا من زاوية أخرى رضا الناس وعوامهم، نجد أنه مقابلة ربوبيته تعالى بارتياح، والانغلاق التام عما سواه بحثاً أو توجهاً، ونسج الحياة حول حقائق: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام:١٦٤) وكذلك ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ﴾ (الأنعام:١٤). الرضا بهذا المفهوم ذو أهمية بالغة لكل مؤمن حيث يفيد التوحيد الحقيقي في الوقت نفسه. والرضا بهذا المستوى يتحقق بهيمنة محبته سبحانه

على القلب، حتى لا يبقى موضع لمحبة أخرى، بل تكون محبة الأغيار أيضاً لأجله وفي سبيله، وتتخذ المحبة شكل العبادة.

والرضا في الدرجة الثانية، هو رضا أرباب المعرفة، ويطلق عليه أيضاً "الرضا عن الله" وهو استقبال القضاء والقدر بانشراح صدر، من دون أن يدع مجالاً لأدنى انحراف في إبرة بوصلة القلب ولو في أقل زمان.

فبينما الأول يعدّ اقتراباً عامياً للرضا، يُعدّ هذا معاملة القلوب المجهّزة بالمعرفة مع الحق سبحانه.

أما الرضا في الدرجة الثالثة، فهو رضا الأصفياء، ويلخص بـ"الرضا برضاه تعالى".

فمَن شُرّف بهذا المقام فلا غيظ ولا سخط لأجل نفسه، ولا شعور بالفرح والسكينة لأجل نفسه، بل يعيش في أذواق ولذائذ الفناء في ربه، متخلياً عن مشاعره وأفكاره ورغباته.

فالرضا في الدرجة الأولى، فرض، لإنه إرادي ويفيد التوحيد، وكذا مبدأ في سبيل القربة إلى الله.. أما الثانية فهو بمثابة واجب، إذ هو دوام المرتبة الأولى وأساس المرتبة الأخيرة من حيث القربة.. وأما الثالثة: فهو هبة إلهية أكثر مما هو كسبي، وعُدّ من النوافل التي هي عين القربة.

ويمكن القول أيضاً أن الأخيرة من هذه الدرجات تضم الأولى والثانية كذلك، لأن الأصل والأساس هو كون العبد في طريق الرضا، والعيش في جو الرضا. أما التكامل مع الرضا والتحول إلى الرضا فهو نتيجة وثمرة.

وبتعبير آخر إن المرتبتين الأوليين متعلقتان بأسماء الله وصفاته تعالى، أما الثالثة فمتعلقة بما يترتب عليها من ثواب وجزاء وتجل وواردات ومقابلة. واعتقد أن الآية الكريمة النيرة: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (البينة:٨) تشير إلى هذه الأمور الثلاثة معاً. والحقيقة نفسها يبينها الرسول الكريم ﷺ في حديثه الشريف: (ذَاقَ طَعْمَ الإيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالإسْلامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً).[1]

ونرى أنه بالملاحظات الآتية يمكن تغذية الشعور والفكر لبلوغ الرضا بالشعور والفكر، ويمكن أن تذلل بعض صعوبات ومشقات هذا الطريق العسير، ويمكن تعديل الاعتراضات الجسمانية والدنيوية إلى حد ما:

• الإنسان أمام تقدير وتجليات الحق سبحانه ما هو إلاّ نموذج وصورة ليس له حق التدخل فيما تعهّد به من دور يؤديه لا في كيفيته ولا في شكله.

• كل ما يصيب الإنسان قُدّر وفق ميوله كشرط عادي، ولا يقدر على تبديله إلاّ الخالق سبحانه.

• الانسان بكل ما يملك عبد لله ومُلكه، فلا يتدخل العبد في تصرفات سيده.

• إن كان الإنسان يحب الله حق الحب، عليه أن يهش بما يرد منه زهرةً كانت أم شوكةً.

• قد لا يدرك الإنسان نتائج ما يصيبه، لعل فيه مصالح كثيرة تسع الدنيا. والآية الكريمة صريحة في هذا ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ

---

١) مسلم، الإيمان، ٥٦؛ المسند للامام أحمد ٢٠٨/١.

وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢١٦).

• المسلم هو من استسلم لله، لذا سخطه على إجراءاته تعالى غير وارد إطلاقاً.

• قبل كل شيء المؤمن إنسان يحسن الظن دائماً، فكيف يسخط على إجراءات ربه فيسيء الظن وهو المأمور بحسن الظن.

• الرؤية الحسنة، والرويّة الحسنة والتأويل الحسن تجاه ما يصيب الإنسان من القدَر تملأ جوانحه بالطمأنينة والانشراح.

• لئن كان إيفاء حق المسؤوليات التي علينا في الدنيا، أو المسائل التي نتعرض إليها، يشكل أساساً لحياتنا الأخروية، ألا ينبغي علينا أن ننجزها حباً وكرامة كما ننجز واجب التعليم والتربية ؟

• إن رضا العبد بما يرد من ربه، يعني رضا الرب عنه.

• إن العيش الذي يدور مع الرضا حيث دار يذيقنا نشوة الجنان ولو كنا من حيث مشاعرنا في جهنم، في حين الانزعاج تجاه ربوبيته تعالى يسبب الغم والكدر والتشتت.

• تحري الرضا وأسبابه، دعوة لا تُردّ للإمدادات الإلهية.

• إن كان غل القلوب وغش الناس، سوء أدب تجاههم، فكيف باستشعاره مع إجراءات الله سبحانه ؟ إنه ذنب لا يغتفر، ولا يسمح أدبنا التعبير عنه.

• إن الرضا بتجليات الحق سبحانه وقدره، أهم وسيلة للسعادة، ينور هذا، الكلام الطيب الذي قاله الصادق المصدوق ﷺ: (مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ رِضَاهُ بِمَا قَضَاهُ اللهُ وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُهُ اسْتِخَارَةَ اللهِ وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ سَخَطُهُ بِمَا قَضَى اللهُ).[1]

• إن استشعار الإنسان بالرضا والانشراح بإجراءات الله سبحانه، يملأ قلبه بنسائم إلهية سامية (لاهوتية)، بينما السخط يملأه بأوهام شيطانية.

• إن الذين يعيشون في فلك الرضا، كأنهم يجعلون من أعمارهم نسيجاً رائعاً للشكر. بينما المتذمرون بعدم الرضا يسحقون حتى أفضل أعمالهم بين رحى الكفران فتذهب هباءً منثوراً.

• إن عدم الرضا والسخط على إجراءات الحق سبحانه، من أكثر منافذ الشيطان تأثيراً على الإنسان وقلّما ينجو منه مَن كان في مثل هذه الحالة النفسية.

• كفى بك شرفاً أن أهل السموات يشاركونك في رضاك وانشراحك بمعاملات الحق سبحانه معك.

• الراضي يعني متّبع الهدى، والساخط يعني متّبع الهوى.

• الراضي بحكم الله لنا يعني تفضيل إرادته سبحانه على إرادتنا الشخصية، فهل من داعٍ للتعبير عن الوجه المخالف ؟!

• إن جميع الطاعات والعبادات ثمرات مشاتل الرضا، بينما المعاصي

---

١) الترمذي، القدر ١٥؛ المسند للامام أحمد ١٦٨/١.

ثمرات الحرمان منه.

• الرضا ينقذ الإنسان من الخصام الداخلي مع ربه. وغني عن البيان ما في ذلك من سوء أدب.

• إن شعور الرضا بالحق سبحانه، تعبير عن الإيمان به والتوقير له لقوله ﷺ :(عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ).[1]

• أول عصيان لله على الأرض، بدأ بعدم رضا الشيطان عمّا هو مقدّر له.

• لا مرتبة أعلى للإنسان من مرتبة الرضا، ولو كانت هناك مرتبة تفوقها لأنزل الله محبيه فيها بعد نيلهم "الحسنى". بينما النعمة الخالدة التي لا نهاية لها هي ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:٧٢).

• الرضا بني على أسس مهمة للدين، إذ يستند إلى التوكل، وترفرف حقيقتُه بأجنحة اليقين، وينال لبُّه الخلود بالمحبة، وخميرتُه شاهدة الوفاء الصادق وبيان فعلي للشكر.

• الرضا مصعد سحري يرفع الإنسان في دفعة واحدة إلى أوج الكمالات، فالذين استقلّوه يصلون هدفهم بسرعة تفوق الزمان.

• المحبة، الإخلاص، الإنابة، الأوبة زهرات يانعات على سفوح الرضا. ومن العبث البحث عن هذه الأوصاف في القلوب التي لم تنقطع إلى رضاه سبحانه.

إن جزاء الأعمال التي تُؤدّى بالحواس الظاهرية، قليل حتى لو تضاعفت تلك الأعمال، لأن الكمية تحسب بقوالب. بينما جزاء الأعمال القلبية كالرضا وما

---

١) المسند للامام أحمد ١/٤٥٢، ٣٩١.

فيه بُعد الرضا يتناسب طردياً مع وسعة القلب، فهو فوق التصورات.

الرضا أعظم مرتبة عند الله سبحانه، وأرقى ما فيها هي الصفة المشتركة لمن هم في أرفع مقام. فالخط الواصل من سيد الأنام ﷺ إلى الأنبياء الآخرين (عليهم السلام) ومنهم إلى الأصفياء والأولياء.. جميع هؤلاء الأفذاذ بلغوا تصفيات التسابق الأخيرة فيتنافسون في الإخلاص واليقين والتوكل والتسليم والتفويض لبلوغ الهدف.

فكم ركبوا أكتاف الشدائد وكم تحمّلوا الصعاب والأهوال وكم اقتحموا غمرات أنهار الدماء والجروح بلوغاً إلى هذا الهدف!

فهذه أنّات مكابد منقطع إلى الرضا:

اَي جَفَايِ تُو زِدَوْلَت خُوْبتَر

وَانْتِقَامِ تُو زِجَانْ مَحْبُوبْتَرْ

عَاشِقَم بَرْقَهرُ وُ بَر لُطْفَشْ بَجِد

بُو العَجَب مَن عَاشِقِ هَرْ اِينْ دُوضِد[1]

وَالله اَرْ زِينْ خَار دَرْ بُسْتَان رَوَم

هَمْچُو بُلْبُل زِينْ سَبَبْ نَالاَنْ شَوَمْ

اِينْ عَجَبْ بُلبُل كِه بُكَشَايَدْ دَهَانْ

تَاخُورَدْ او خَارْ را بَا گُلِسْتَان[2]

---

١) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج١/ص٧٧/ب١٥٦٦.

٢) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج١/ص٧٧/ب١٥٧٠.

"أيها الحبيب، جفاؤك أحلى من السعادة والجاه، وانتقامك أحبّ من الروح.. وإني لشديد العشق لقهره ولطفه، فما أعجب أنني عاشق الأضداد.. فوالله لو رحلت من شوك البلاء هذه إلى بستان الصفاء سأنوح كالبلبل، فيا عجبا كلما فتح البلبل فمه قال: شوك.. بستان.

وللشاعر الحروفي "نسيمي" قول جميل في هذا الصدد:

لا أتراجع عنك أيها الحبيب
فأنا العاشق المكابد
ولو قطعتَ قلبي إربا لا أتراجع عنك
ولو شقوني كزكريا من الرأس إلى أخمص القدم
ولو وضعتَ أيها النجار في مفرق رأسي المنشار لا أتراجع عنك
ولو حرقوني ونادوا رمادي من النار
لا أتراجع عنك أيها الستار.

نعم إن مقام الرضا مقام فوق مقام الجمع والفرق، إذ أنفاس هذا المقام هي: "طاب قهرُك كما طاب لطفُك".

اللّهم وفقنا إلى ما تحب وترضى، وصلى الله على سيدنا
سيد المرضيين وعلى آله وأصحابه المخلَصين. آمين

الانبساط

الانبساط هو التوسع، الانتشار، التعمق في الداخل، استعلاء المرء على طبائعه. ولدى أربابه: انفتاح القلب للجميع، وإرضاؤهم، بطيب اللسان وطلاقة الوجه، ضمن إطار الحدود الشرعية.. ومن حيث العلاقة مع الله سبحانه، هو هيمنة حالة من مزيج الخوف والرجاء على ذات الإنسان بحيث إن ذوي القلوب الواصلة إلى هذا المستوى، يكتمون أنفاسهم في هيبة الحضور، ثم يطلقونها بنشوة نسائم الحضور وبهجة سروره، فكلما شهقوا اقشعروا وكلما زفروا انشرحوا.

وعلى هذا يمكننا أن نقسم الانبساط إلى قسمين، من حيث علاقاتنا بالناس وعلاقاتنا بالحق سبحانه:

١- الانبساط ضمن علاقاتنا بالناس: مع الاحتفاظ بارتباطنا بالله، هو تعامل الفرد مع الناس كفرد من الناس، أي بمستوى إدراكهم وعقولهم. فقد كان سيد الأنام ﷺ لدى تعامله مع من حواليه، لا يتكلف بل كان يمازحهم أحيانا، ويلاطفهم بنكات ملؤها الحكمة، على حسب ما يتحمله مستواهم وإدراكهم. ويهش لأولئك الرجال الذين يعيشون في مراقبة الله، فيدفعهم إلى الابتسام والانبساط والانشراح. ذلك لأن "القلب كالمرآة، قد يكدّرها الجدّ

أحياناً، ولا تصقل إلاّ بمزاح لطيف رقيق يزيل تلك الكدورات". كما قاله صاحب المنهاج.

٢- الانبساط ضمن ارتباطنا به سبحانه: هو استنشاق هبّات نسائم الانبساط، والعيش بالخوف والرجاء معاً في الروح، بحال يفوق الأحوال. فالخوف والرجاء اللذان هما من أحوال النفس، عنوانان على علاقة المبتدئين بالله في ارتباطهم به سبحانه. أما الانبساط الذي هو حال العارفين حقاً فهو بُعدٌ آخر لحياة القلب وحالةٌ خاصة بأرباب القلوب. وأحوال الذين لم يبلغوا الانبساط بعدُ والتي تبدو كأنها انبساط، كثيراً ما تسوقهم بما يحصل لديهم من ألفة معرفية، إلى تخريب الحذر والحيطة وإلى اللامبالاة الذي يعدّ سوء أدب مع الله سبحانه.

والانبساط يظهر في مقام كون المرء مرآة مجلوّة لأسماء الله وصفاته الجليلة، وذلك بعد انسلاخه من الرغبات الجسمانية وتخلّصه من تأثير النزعات البدنية. وسواء أطلقنا على هذا المقام اسم مرتبة الجمع أو المحو، فالنتيجة لا تتبدل، فهو نقطة ذات أسرار، حيث إن الشخص يتشكل بنسائم من الحق سبحانه، ويتسربل بألوان تسمو على الألوان. وعندما يبلغ الواصلون هذه النقطة لا يستطيعون كتمانها قطعاً. أما تكلم المبتدئين – غير الواصلين- جزافاً عن الانبساط فوقاحة.

"إن كان نديم السلطان يدلّ وينبسط، فلا تنهض أنت لمجاراته، لأنك لا تملك ذلك السند والضمان. فيا من يعجز عن النجاة من قيود هذا العالم الفاني أنّى لك أن تعرف المحو والسكر والانبساط!"..

لتهنأ روحك أيها الرومي مولانا. فأنّى يعرف الـــروحَ عبـــدةُ البـــدن والجسد! وأنّى يعرف الروحانيات واللدنيات حبيسُ البدن!

وليُسأل الذين اكتوت قلوبُهم بنار الحق سبحانه خمسين مرة، عـــن آلام الصدور المحترقة والانقباضات والانبساطات المتسربلة بألوان الماورائيات.

اللّهم حبّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

القصد والعزم

القصد يعني: التوجّه، الثقة، الاستقامة، العمل نحو هدف معين، التفكر باعتدال دون إفراط وتفريط، العيش باعتدال وجعله نهجاً للحياة.

والقصد لدى أربابه: قطع علائق القلب عما سواه تعالى نيلاً لمحبته تعالى وهو المحبوب الحقيقي، وكسباً لرضاه. ويمكن الربط بين هذه المفاهيم. فقد قال "إبراهيم حقي":

القلب بيت الله طهره عما سواه
ففي الليالي ينزل الرحمن إلى قصره.

بمعنى عليك أن تصون القلب الذي هو بيت الله عن كل ما سواه، ليُشرّف صاحبُه الحق بالرحمة قصر تجليه. ففي عباراته هذه توكيد على النية والثبات في سبيل تحقيق هذا التوجه الرفيع والهدف السامي، ويبسط أمامنا – بنظر علوي – المسافة البعيدة جداً والقريبة، والطويلة جداً والقصيرة، الممتدة من القصد إلى العزم ومنه إلى الهدف.

وفي الحقيقة هناك طريق مهم واحد فقط للبقاء في السكينة والاطمئنان وللحيلولة دون التعرض لضيق القلب والروح الناجم من الإفراط والتفريط. وهو اتخاذ رضا الحق سبحانه ومحبته أساساً. والعيش بحياة تُنسج نسجاً بديعاً على

هذين الأساسين. "إن قلباً خالياً من الحبيب، ومن طلب الحبيب، لا نجاة له من الضيق والقلق. وإن رأساً خاليا من حب الحبيب، لا تبحث فيه عن المعنى واللب، لأن ذلك الرأس ليس إلاّ جلداً". كما قاله جلال الدين الرومي.

فذوو الأرواح التي عزمت على السفر إليه تعالى، لا يمكنهم أن يغفلوا ولو للحظة واحدة عن السفر، وعن تصور السفر، والمعاني والغايات الجليلة التي تُستهدف في ذلك السفر.

فلو زاغ بصرهم مرة إلى الأغيار، ونادَوهم بـ"حبيب"، ناحوا وأنّوا طوال العمر. ألا إنها لشقاوة عظمى من لم يتعرف على طريق الحق سبحانه، فإذا ما تعرّف عليه وعرفه فالبقاء في سواه خسران وخيبة، وما أفدحه من خسران وما أعظمه من خيبة!

القصد أولاً يولَد في سفوح القلب ويترعرع، ويتفجّر أنهاراً في وديان الحس، ثم يغلّف ويلف ذات الإنسان وجميع كيانه وأنّيته. فيبين له الهدف المقبل بيان إشارات المرور. فالقصد بهذا المعنى، نيّة بشعور، وهو البذرة التي نثرت على روابي القلب. لذا فالروح المشدودة بهذه النية واليد التي نثرت هذه البذرة، إن كانت مسندة بالتأييد الإلهي، ففي كل هبّة وفي كل همّة، تفتح في رحم الزمان مئات من أبواب الخير والبركات. فمن دخل بالقصد باباً دواراً، التقى العزم بعد خطوتين، وما أن يدخل ذلك المجال حتى يمضي سابحاً نحو الهدف.

والعزم يمكن أن نعرّفه أيضاً بأنه القرار الذي يخلُص إليه المرء في أي شأن كان. فإذا ما قرر صدّ الأبواب في وجه جميع البدائل، وثبت على ما يتبعه

ويطلبه لتحقيق ما هو مكلف به بجدّ وبشعور بالمسؤولية.

العزم يلي القصد وبُعدٌ أكثر عمقاً للإرادة، وفي الوقت نفسه هو المرتبة الأولى للسمو إلى سماء التوكل والتسليم، ويلخص القرآن الكريم بكلامه الساحر هذا في بضع كلمات في الآية الكريمة ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ (آل عمران:١٥٩). نعم إذا ما قُطعت هذه المرتبة الأولى بالتوكل وعُززت وثُبِّتت بالتسليم، تستوي أمامه التلال، فلا عوج ولا أمت في الطرق، ويبلغ الإنسان مقصوده كأنه يطير في السماء.

القصد والعزم -بالأعماق التي تخصهما- بُعدان من أبعاد الإرادة، وأساسان مهمان لها.

فالسالك الذي نوى سياحة طويلة، مضطر للمرور بمنزل القصد والعزم لأخذ التأشيرة، فإذا ما حازها بدأ بالسفر الحقيقي. ثم تنقلب الإرادةُ - تحت جناحي القصد والعزم وفي عمق ذي أسرار- إلى المراد حتى تذوب فيه، فإذا القصد والعزم اللذان هما عبارة عن تصميم ومخطط، يتحولان إلى عنوانين اعتباريين وينمحيان.

ينبه الحبيب المصطفى ﷺ بأن كل من يتسامى لأجل البلوغ إلى الله، فوق ما هو مكلف به، يأتيه الله سبحانه. نعم يأتيه، ويتجلى بأن يكون بصره الذي يبصر به وأذنه التي يسمع بها، ولسانه الذي يتكلم به.

فالوصال بجناحي القصد والعزم لمن هم في الطريق بقاء ضمن الفناء. بينما لذوي الأرواح الذين اجتازوا الطريق ونالوا المراد، بقاءٌ في بقاء، ودائرة صالحة للخير تولّد الخير لا يجدون حتى أثراً للألم قط. وأكثر من ذلك تشرق

الآلامُ هناك في أُفق اللذة وتأفل هناك. فتندمج أنواع القهر بأنواع اللطف معاً.

فالروح الواصلة إلى هذه النقطة تردد دائماً "طاب قهرُك كما طاب لطفُك" وتملأ ما في يدها من كأس الرضا بكوثر الجنة وتشرب منه وتهنأ.

اللّهم إني أسألك الثبات في الأمر وأسألك العزيمة في الرشد

وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك،

وصلّ وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الإرادة، المريد، المراد

الإرادة هي قابلية الطلب، الرجاء، القدرة على تحقيق الرغبات والطلبات، أو الترجيح بين شيئين. وقد عُرّفت لدى الذين يحيون في مستوى القلب والروح بأنها استعلاء على مطالب النفس، وعصيان على الرغبات البدنية، وإيثار رضاه تعالى على مطالبه ورغباته، والفناء فيه سبحانه وفي مراده في كل الأمكنة والأزمنة.

والمريد، هو المتجرد عن حوله وقوته، المستسلم المنقاد لإرادة القدير المطلق الذي بيده مقاليد كل شيء، من الذرات إلى المجرات.

أما المراد، فهو الروح السعيد المشحون بما يريده تعالى، المنغلق كلياً عما سواه، فلم تبق لديه رغبة ولا شهية غير رضاه تعالى، فغدا مرادَ الله ومطمحَ نظره سبحانه.

والإرادة هي أول منزل لسالكي الحق، وأول محط للذين نشروا أشرعتهم نحو الخلود، وذلك حسب حقيقة قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الأنعام:٥٢؛ الكهف:٢٨). فالذين توجهوا إلى اللامتناهي يمرّون بهذا الميناء وبهذا المدرج للطيران، وبقوته العمّركزية (القوة الدافعة عن المركز) يرتفعون ويسيرون نحو الهدف.. هذا السير يتناسب طردياً مع صفاء

الشخص ودرجة علاقته بالمادة وقوة الدفع للمركز. وحسب توفيق الحق سبحانه وقوة إرادة الفرد، يقطع بعضهم هذه المسافة بسرعة المشي على الأرض، وبعضهم بسرعة القمر الصناعي، والصاروخ، والضوء. وبعضهم يقطعونها بما يفوق جميع مقاييس الكم.. فالمعراج للنبي، ونهاية المراتب للولي والسير والسلوك للدرويش.. أمثلة ساطعة على الإرادة المعززة بتوفيقه سبحانه والمريد والمراد.

هناك علاقة بين المريد والإرادة، لكنها علاقة اشتقاق لغوي على الأكثر. فكما أن الأسباب أصبحت أمام نظر العقول السطحية، ستاراً للعزة الإلهية وعظمتها، فإن إرادة الإنسان كذلك التي هي وجود إضافي، ظل لظل إرادة مَن هو ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ (البروج:١٦). وكما أن الظل تابع للأصل، فالإرادات المخلوقة تابعة للإرادة الخالقة، فما يُتوهم في الظل من لمعات وحيوية وجاذبة لا تختلف عما هي في الصور المنعكسة على المرايا، إلاّ أنه ليس يسيراً إدراك المبتدئين لهذا.

فالمريد لن ينجو من "الفرق"، ما لم يربط إرادته بالإرادة المطلقة، فيبلغ أفق المراد، وما لم يرتفع من البدن إلى الروح، ومن الجسم إلى القلب، ومن الفكر إلى الوجدان، إذ يرى الإرادة شيئاً وصاحبَ الإرادة شيئاً آخر والمراد شيئاً آخر.

نعم، إن السالك مريد في بداية الطريق، ومراد في نهايته.. فهو مريد لدى سعيه لتمليك طبعه العبودية، وهو مراد عندما تبلغ علاقته مع الحق سبحانه حالة لا تنفك عن الفطرة.. وهو مريد لدى بحثه عن طرق التحبب

والرجاء، وهو مراد عندما يرى آثاراً منه تعالى في كل شيء، فيشرع بنسج بديع من الذوق الروحاني ذهاباً وإياباً بمكوك المعرفة والمحبة.

وضمن هذه المسافة الشاسعة بين بداية علم اليقين إلى نهاية حق اليقين ابتداءات وانتهاءات نسبية كثيرة. فمثلاً: قوله تعالى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (طه: ٢٥) بالنسبة للكثيرين انتهاء، ولكنه ابتداء بالنسبة إلى الحظوة بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الانشراح:١).. وكذا قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف:١٤٣) نهاية بالنسبة لمقامه، ولكنه يعدّ ابتداء حسب أفق قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (النجم:١٧).. وهكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء:٦٢) الذي هو تعبير عن إدراك للمعية، لا يقاس مع الحقيقة السامية في قوله تعالى: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠).

نعم، إن الأساس في المبدأ، هو الصدق والوفاء والعزم.. وفي المنتهى، الجدية، التمكين والأدب. فالذين قصّروا في المبدأ يظلون في الطريق، بينما في المنتهى يعاتَبون ويؤنبون.

إن من أهم المنابع المغذية للإرادة هو الحساسية والدقة في أداء التكاليف، مع التوسل والتضرع إليه تعالى. وأسبق من هذا، هو أن العناية الإلهية مرتبطة بالأخذ بالنوافل بدقة متناهية كي تكون عين الإنسان التي يبصر بها وأذنه التي يسمع بها ولسانه الناطق بها ويده التي يبطش بها.[1]

---

١) انظر: البخاري، الرقائق ٣٨؛ المسند للامام أحمد ٦/٢٥٦.

اللّهم ألهمني رشـــدي وأعذني من شـــر نفسي،
اللّهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وصل اللّهم
على سيدنا محمد المختار وعلى آله وأصحابه المقربين الأبرار.

اليقين

اليقين يعني النجاة من الشك والشبهة، وتمليك الروح علما قاطعا وصائبا وصحيحا لا تردد ولا ريب فيه قط. فاليقين، والإيقان، والاستيقان، والتيقن، إنما هو مقام معنوي يعيشه سالك المعرفة لدى ارتقائه في سياحته الروحانية. فهذا المقام يخص الموجودات التي لها درجات، كالمرتبة والترقي والانبساط، ولا ينصرف الذهن قطعاً إلى العلم الإلهي الذي لا درجات فيه ولا مراتب ولا رقي ولا انبساط، إذ الأسماء الإلهية توقيفية مقطوع بها باليقين، وقد عُلِّم من قبل الشارع – حسب الواردات التي وهبت له – الذي هو لسان الغيب الفصيح، وبُلِّغ ما هي هذه الأسماء، فلا نصادف فيها اسم "الموقن" ليكون مصدراً لليقين. وثانياً: أن اليقين يُستعمل لمن يتصف بالشك والشبهة والتردد، بينما الذات الإلهية منزّهة ومقدسة عن هذه الأمور.

واليقين لدى أهل الحقيقة، هو العلم بأسس الإيمان ولا سيما قطبه الأعظم (التوحيد)، بعلم لا احتمال لنقيضه قطعاً، وقبوله وإدراكه واستشعاره، وجعله جزءاً لا يتجزأ من ذات الإنسان، بلوغاً إلى أُفق العرفان. وقد عُرّف أيضاً أنه مشاهدة الغيوب، ومراقبة ما وراء الأشياء وكتمان

الأسرار، عن طريق "اللطيفة الربانية" مستغنياً عن الدلائل والبراهين في الإيمان. وأرى من الأفضل أن يطلق على اليقين ، الوصول إلى نقطة هي أقصى ما تُوصِّل إليها باستعمال جميع منابع المعرفة وسبل المشاهدة والمراقبة، والتي هي ابتداء من جهة وانتهاء من جهة اخرى.

فرجل الحقيقة البالغ تلك النقطة كثيراً ما يفتح أشرعته نحو الخلود، فيصل أفق المعراج قلباً، وروحاً أفق ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (النجم: ١٧)، فيجول بين مجرّات التجليات الإلهية المتوهجة، ويُكرَّم بلسان ينطق بـ "الآية الكبرى" وببصر يشاهدها وبسمع يسمعها.. أي أنه يحظى بما تفيده معاني جميع الموجودات صغيرها وكبيرها، نتيجة مطالعته لكتاب الكائنات مطالعة منظمة، وتنفيشه الأشياء مكرراً إياها كالحلاج الماهر.. ويحرز انكشافاً لما لا يوصل إليه من أسرار فيما وراء الأستار، وذلك بما يُقدّم الله لمشاهدته في الآفاق والأنفس من لوحات العبر الواحدة تلو الأخرى.. وينال تجلياً "للكنز المخفي" بطول موجة التنزل، والذي لا يمكن قطعه بطاقة البشر، ولا يمكن الإحاطة به، يناله في القلب بإمرار حياته في إقليم الإلهامات المنور المطلسم.. ويغنم التعرف على ما يشعره منشور الوجدان البلوري ويشير إليه، والذي يعكس -من دون تكسر أو تحويل- الواردات التي هي بماهية الضوء المترشح من هذه المنابع، يعكسه على العين والأذن واللطائف الأخرى. لذا فإن إدراك هذه الحظوة والاستشعار بها وتذوقها والتلذذ بها، لا يُكرَّم به إلاّ القريبون من الله بمعنى خاص جداً.

إن أقل اليقين، قويّ إلى حدّ يملأ القلب نوراً، وينفي عنه غبار الشك

ويمسح ضباب التردد وينفخ في عالم الإنسان الداخلي أنساماً تفوح بالسرور والاطمئنان والروح والريحان. وكما قال ذو النون المصري: اليقين يفجّر القلب بآمال أبدية ورغبات أخروية، هذا الشعور الرفيع يثير فكر الزهد وينميه.. فربوع الزهد مجالات للفكر مفتوحة للحكمة، فالروح الذي يحلق بالزهد ويبلغ الحكمة يسدد النظر نحو العقبى ويجعلها مهيمنة عليه. فالذين يقصدون العقبى دون انقطاع هم في معية الحق سبحانه مع أنهم في أوساط الناس.[1]

إن بداية اليقين، برزخُ إزاحة الستار، وبعد خطوتين منه المكاشفة، وبلوغ القلب إلى الامتلاء بالتجليات الإلهية، والانغلاق إزاء جميع الشبهات والشكوك، حتى أن ممن بلغوا هذه النقطة قالوا: لو كُشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً.[2] وبعد هذا الإقليم الذي تظهر فيه حقيقة الأشياء بما هو فوق الألوان والكيفيات بنَفَسين اثنين، هناك المشاهدة وهي أفق السياحة في عالم المواهب التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

واليقين من حيث المبدأ كسبي وأقصد به تعلق الإرادة الجزئية بالميل والتصرف فيه كما هو لدى أئمة أهل السنة، ومن حيث المنتهى والنتيجة بديهي، ولطفي، ولا بد له من تأشيرة المعرفة. فتظهر المعرفة؛ باقتران إحسان

---

١) انظر: الرسالة للقشيري ٢٨٩.

٢) ينسب إلى سيدنا علي كرم الله وجهه. انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم ٢٠٣/١٠؛ الأسرار المرفوعة لعلي القاري ٢٨٦.

الله سبحانه بزاوية النظر، والنظر السديد، والنية الخالصة، وتعارف السالك مع الأدلة، فتتبلور وتنور جميع أعماق الذات. وإذا بالأنوار تغدق على الروح من الجهات الأربع، وينبثق الفجر على أضواء تتـرى في آفـاق الوجـود. وتسطع المغارب سطوع المشارق. فيرى كل فرد حسب استعداده نفسَه كنقطة محاطة بالأنوار في أعماق روحه.. ويشاهد نضوب بحر اضطرابات الكثرة وفناءه. ويدرك أن كل شيء قد انقلب إلى زمزمة الوحدة وترنمها فيتذوقها ويعيش بها.

نعم، إن اليقين من حيث ابتداؤه، فيه شيء من الضبابية والغبش، ولهذا يهبّ عليه القلق وعدم الاستقرار. أما من حيث نتيجته فهو حضور واطمئنان بالغ يفوق التصور. فالذين يعجزون عن رؤية هذا الفرق بين المبدأ والمنتهى، قد يلتبس عليهم الأمر بأن في اليقين خطرات، وفي الحضور التوطن والأمان. بينما المسألة هي مسألة المبدأ والمنتهى. أما الخطرات فهي واردة لكل أحد كما يفهم من فحوى الحديث الشريف (إِلاّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ)،[1] وأما التوطن والأمان فهو بواكير عنايته سبحانه التي ربّاها وأنشأها في مشاتله الخاصة.

وقد بحث اليقين ضمن ثلاثة أقسام لدى أرباب التصوف، في ضوء ما تشير إليه آيات الذكر الحكيم:

١. علم اليقين: هو الوصول إلى أقوى إيمان وأقطع إذعان فيما يتعلق بأمور مستهدفة، بوصاية الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة.

---

١) البخاري، الرقائق ١٨، المرضى ١٩؛ مسلم، المنافقين ٧١٧٨؛ أبن ماجة، الزهد ٢٠.

٢. عين اليقين: هو مرتبة الوصول إلى معرفة تفوق التعريف، يكسبه الروحُ ، بالكشف والمشاهدة والإدراك والاستشعار.

٣. حق اليقين: هو الحظوة بمعية ذات أسرار، من دون ستار ولا حائل، تتجاوز التصورات، ومن دون كمية ولا كيفية. وقد فسر بعضهم هذه الحظوة بفناء العبد من حيث ذاته وأنانيته ونفسه، وقيامه بذات الحق سبحانه.

ويمكن أن نعبّر عن هذه الأمور الثلاثة بمثال بسيط وهو: معرفة الإنسان بالموت قبل موته هي "علم اليقين"، ورؤيته الملائكة الآتين لقبض روحه وارتفاع الغشاوة عن بصره وشهوده بعض الحوادث فوق الطبيعة في أثناء سكرات الموت هو "عين اليقين". وتذوقه طعم الموت الخاص به هو "حق اليقين". وعلى هذا فأي علم قاطع اكتسبه الإنسان بطريق الاستدلال العلمي، في أي موضوع كان، هو علم اليقين. وبلوغه ببصره وسمعه وحواسه السليمة الأخرى إلى المعرفة هو عين اليقين. والعرفان الذي يرد وجدانه مباشرة وينبعث منه حتى يغشى جميع حواسه الظاهرة والباطنة، مستغنياً عن الأدلة والبراهين هو "حق اليقين".

أما تطبيق اليقين ولا سيما حق اليقين على الحقائق المجردة، فكما ذكرنا آنفاً، فهو مسألة حالية وذوقية كلياً. وأي كلام أكثر من هذا يفوق حدّنا.

اللّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه،

وصلّ وسلّم على صاحب اليقين الأتم سيدنا محمد الأكرم

وعلى آله وصحبه أجمعين.

الذكر

الذكر هو التخطر، الاستذكار. ولدى الصوفية هو تكرار اسم "الله" وصفاته واحدة واحدة، أو بضع منها معاً. ويؤدَّى الذكر منفرداً أو جماعة بأي اسم كان، ففي بعضها يذكر اسم "الله" وفي أخرى يذكر "لا إله إلاّ الله" وفي أخرى يذكر أسماء أخرى وصفات أخرى، وذلك حسب تعيين المرشد والدليل.

والذكر كالشكر تماماً، وظيفة ودَين العبدية، يؤدّى بجميع الأركان باللسان وبالقلب وبالبدن وبالوجدان.

فذكر اللسان هو؛ في موضع ذكر الله بجميع أسمائه الحسنى وبجميع صفاته الجليلة وأن يكون صدّاحاً بحمده والثناء عليه والانفعال بالتسبيح والتحميد.. وفي موضع قراءة كتاب الله الكريم واللواذ بريادته والترنم بآيات الله التكوينية في كتاب الكائنات بمعناها الحرفي،[1] وإعلان عجز الإنسان وفقره بلسان الدعاء والمناجاة.

وذكر الوجدان هو ذكر الله بجميع أركان الوجدان وفي مقدمته اللطيفة

---

١) أصل دلالة (الحرف) نحويا أنه غير مستقل بنفسه، في حاجة مستمرة إلى غيره، فقراءة الكائنات بالمعنى الحرفي يعني: أنها غير مستقلة بنفسها، بل هي في حاجة مستمرة إلى خالقها، مفتقرة في بقائها إلى إرادته سبحانه. (المترجم)

الربانية، أي ذكره تعالى قياماً وقعوداً بأخذ الدلائل على وجوده سبحانه، والتفكر في أسمائه الحسنى وصفاته الجليلة التي تتلمع في كتاب الوجود والتي تهمس فينا كل آن همسات متنوعة. ومن ثم التفكر في أحكام ربوبيته التي تسع العالم أجمع، وفي المسائل المتعلقة بمسؤولياتنا تجاه هذه الأحكام، من أوامر ونواه، ووعود ووعيد، وثواب وعقاب، والبحث عن أسرار الوجود وعما وراء أستاره، بطرق الأنفس والآفاق، والمشاهدة المتكررة لمحاسن أخروية تتفتح الواحدة تلو الأخرى، في ثنايا هذا البحث أمام البصر والبصيرة. وتصور أن كل شيء من الذرات إلى السيارات نبضٌ ينبض باسم "عالَم القدس" وترجمانٌ لعالم اللاهوت يشع نوراً، ومنفذٌ "لحقيقة الحقائق". وهذا هو الذكر القلبي. فالذين يدركون الوجود ويتحسسونه أنه حي نابض، والذين يستطيعون أن يستمعوا إلى عالم اللاهوت وهو يتكلم كالخطيب، والذين يوفّقون إلى مشاهدة تجليات الجلال والجمال من خلال هذه المنافذ، يتذوقون أذواقاً روحانية لا عين رأت مثلها ولا أذن سمعت، حتى أن ساعة من هذه الحياة ضمن هذه الزمزمة الذوقية تعادل مئات السنين. نعم، إن هذه السياحة القدسية، بتلك اللانهائية اللذيذة تدوم متنهدة بالواردات والحظوظ المعنوية وتستمر في دائرة صالحة. وفي النقطة التي تغمر أنوار "سُبُحات الوجه" الجهات كلها، تفوق مشاهدات الإنسان ذاته وتتجاوزه. فكل فرد من أرباب القلوب يجد نفسه في لجّة الذكر –سواء كانت مشاهداته موافقة بذات الأمر أم لا– وإذا به يردد الأسماء الإلهية، بما يستشعره من أشياء باختياره أو بدون اختياره.

والذكر أحياناً يرغو ويزبد حتى يغشى ذات الإنسان. ففي مثل هذه الحالة، حالة الاستغراق، لا تبقى علامة للذكر ولا عنوان للذاكر. فيداوم بعضهم على كلمة التوحيد بقولهم: لا موجود إلاّ هو، وآخرون يقولون: لا مشهود إلاّ الله، وآخرون: لا إله إلاّ الله، وآخرون ضمن شعورهم الفطري وبمقاييس كلية يلاحظون بعد "لا" جميع الأسماء الحسنى، فيمرّون إلى "إلاّ الله" ويداومون على ذكر كلمة التوحيد في مثل هذا الشعور الكلي والنظرة الكلية.

ولعل الثواني التي تمر في مثل هذا الجو، جو القربة وجو المعية -تلك الثواني المنورة المتفتحة على الواردات- أكثر بركة وتوجهاً للأبدية من سنوات مظلمة ومقفلة عن الواردات. ويروى كلام طيب كحديث شريف إشارة إلى هذه المباركية "لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملكٌ مقرّب ولا نبي مرسل".[1]

والذكر البدني هو تحويل الأوامر الإلهية ونواهيها إلى حياة تُمارَس وتُعاش، بحيث يستشعر الإنسان في وجدانه كل ما هو مكلف به فيأتمر بأوامره بشوق عظيم وينتهي بنواهيه مع الشعور العميق بالمسؤولية. وإن عمق ما يؤدّى من ذكر باللسان بصورة عامة نابعٌ من هذا الذكر الثاني، فيأتي على صورة صوت لا يموت ينبعث بقوة دافعة من المركز. والذكر البدني على الأكثر هو حملةُ عرض حاجاتنا إلى القدرة الإلهية والقوة الإلهية والغنى الإلهي وذلك بطَرق باب الألوهية، بحثاً عن سبل القبول إلى ذلك الديوان الرفيع بأسلوب الإعلان عن عجزنا وفقرنا البشري.

---

١) الأسرار المرفوعة لعلي القاري ١٩٧؛ كشف الخفاء للعجلوني ٢/٢٢٦.

نعم، إن الذاكر، والمصرّ على الذكر، يؤخذ إلى حفظ الله سبحانه وحمايته ويؤوى في محاضن عنايته حتى أن الأمر الإلهي ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة:١٥٢) يعبّر عن كيفية ذات أسرار وهي تحوّل العجز إلى القوة بعينها والفقر إلى الغنى بعينه.

أي ما أن تذكروا الله بالفكر والعبادة، يذكركم بالتشريف والتكريم.. وما أن تترنموا به في الأدعية والمناجاة، يستجيب لكم بإغداق ألطافه عليكم.. وما أن تديموا علاقاتكم معه سبحانه رغم مشاغلكم الدنيوية الكثيرة، يشرّفكم بالإحسان بعد أن يزيح عنكم مشاكل الدنيا والعقبى.. وما أن تشرّفوا به أوقاتكم التي تنفردون بها وحدكم، يكون "جليسا أنيساً" لكم حيثما تُدفعون إليه من انفراد واغتراب.. وما أن يكون لسانكم رطباً من ذكره في أوقات راحتكم، يرسل إليكم أنسام الرحمة أمام الحوادث الممضة لكم.. وما أن تنطلقوا في أرجاء العالم تعرّفونه، ينجيكم من ذل الدنيا والعقبى.. وما أن تكونوا مخلصين لله في أعمالكم، يكرمكم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[1].. وبهذا يرقى الذاكر، بالذكر وبالرغبة في الذكر وبذل الجهد فيه ونيله، وإذا بالله سبحانه يعمّق أكثر هذا اللطف، لطف الهداية والتوفيق، بإحساناته الخاصة. وإن الأمر الإلهي ﴿وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة:١٥٢) يذكّر بهذه الدائرة الصالحة بين الذكر والشكر، أي السير من الذكر إلى الشكر ومنه إلى الذكر.

إن الذكر لبّ العبادات جميعها، ولبّ هذا اللبّ هو القرآن الكريم. ثم

---

١) انظر: البخاري، بدء الخلق ٨، تفسير سورة السجدة، التوحيد ٣٥؛ مسلم، الإيمان ٣٩، الجنة ٥،٦.

الكلمات المنورة الصادرة عن صاحب الشريعة ﷺ. والذكر بجميع أشكاله الجهرية والخفية، عملية نقل ضياء "سُبُحات الوجه" المتحلقة في مجال الحواس والتفكر والشعور، إلى البدن، وتمليكه الروح.

والذكر، عنوان للإعلان عن الحق سبحانه للإنس والجن تجاه نعمه الظاهرة والباطنة، وما أن ينقطع هذا الإعلان حتى لا تبقى حكمةٌ لوجود الأرض وما عليها. أَلا يربط بيان النبي ﷺ قيام الساعة بعدم بقاء من يقول على الأرض: الله...الله.[1]

إن طريق ذكر الله – بأي شكل كان – هو أقوى الطرق وأسلمها للوصول إلى الحق سبحانه. وبدونه يتعسر الوصول إليه تعالى. نعم، إن ذكر الوجدان له بشعور، ومرافقة اللطائف له كل آن، وكون اللسان ترجماناً لهذا الانسجام الجاذب زادٌ لا ينفد وذخيرةٌ مباركة طيبة لسالك الخلود.

نعم، إن ذكر الله لهو سياحة رائعة في عروج القربة، بحيث ما إن يبدأ اللسان والشعور والقلب بذكر الله معاً، يجد الإنسان نفسه في لحظة واحدة أنه في مصعد ذي أسرار يصل به إلى إقليم تُحلّق فيه الأرواح، فيشاهد ما يشاهد من فرجات أبواب السماء ما يخص الغيوب والماوراء.

ليس لذكر الله وقت معين. فالصلاة التي هي سيدة العبادات وعماد سفينة الدين تقام في أوقات مخصصة، وأوقات أخرى لا تجوز فيها الصلاة. أما ذكر الله فله الحرية المطلقة في السير في أجزاء الزمان، وليس مقيداً بأي حال من الأحوال، كما هو مضمون الآية الكريمة ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا

---

١) (لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لا يُقَالَ فِي الأَرْضِ اللهُ اللهُ). مسلم، الإيمان ٢٣٤.

وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران:١٩١) فليس له حدّ لا زماناً ولا حالاً.

لا أتذكر في الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح أمراً أكثر ترغيباً وحثاً من الذكر. وفي الحقيقة أن الذكر بمثابة الروح والدم في جميع العبادات، من الصلاة إلى الجهاد. إلاّ أن ذكر كل شخص هو حسب تأثير ما يذكر على مشاعره، وهذا ما يطلق عليه الصوفيون بـ "المشاهدة" أو "سكينة القلب". فبعضهم يصل إلى الله في قلبه بذكره له بطريق ذي أسرار. وبعضهم يدركونه سبحانه في وجدانهم "كنزاً" ويكونون دائماً في المعية الإلهية بما في أعماقهم من نقطة استناد واستمداد. فالذين هم في هذا المستوى، كل ذكر جديد هو جهالة، لأنه وسيلة للانقطاع. ولعل العبارة الآتية تعبير عن الذين هم في هذا المستوى من الفهم:

اَللهُ يَعْلَمُ أَنّي لَسْتُ أَذْكُرُهُ وَكَيْفَ أَذْكُرُهُ إِذْ لَسْتُ أَنْسَاهُ[1]

اللّهم اجعلني لك ذكّاراً لك شكّاراً لك رهّابا

لك مطواعاً لك مخبتاً إليك أوّاهاً منيباً.

وصل اللهم على سيدنا محمد الذكّار

وعلى آله وصحبه المخبتين المنيبين.

---

١) شعب الإيمان للبيهقي ٣٣١/٦.

الإحسان

الإحسان لغةً على ضربين: الأول: "أحسَنه" أي أجاد صنعه، أتقنه، عاملَ بشعور الإحسان، استهدف الكمال.. والآخر: "أحسن إليه" أي أنعم عليه، فعل ما هو خير للآخرين. فكلا المعنيين أُخذا بنظر الاعتبار في القرآن الكريم والسنة الشريفة. فأشار في مواضع إلى أحدهما وفي أخرى إلى المعنيين معاً. وقد أشير إلى هذا لدى ذكرنا لشعور الإحسان لسيدنا يوسف على نبينا وعليه السلام.

والإحسان لدى أهل الحقيقة، عمل قلبي يمثَّل بالقيام بالتروّي والتفكير الصائب بحساسية دقيقة خارقة وفق مقاييس الحق، والتخطيط لأمور حسنة جيدة، والتمسك بأمور جيدة وحسنة... وكل ما يتعلق بالعبودية من سلوك وطور، مستشعراً عرضه على الله سبحانه.

ولأجل الوصول إلى الإحسان يُشترط بناء الشعور والتفكير والتصور على إيمان صحيح، وترسيخ حقيقة الإيمان بأسس الإسلام، وصبغها بصبغة ربانية بمقاييس القلب الكريمة السديدة. أما الشعور بضرورة الإحسان إلى الآخرين وإلى أي شيء أخر، فهو طور طبيعي للقلب الذي تكامل بمراقبة الحق سبحانه.

نعم، إنه بحسب حقيقة أن الإحْسَانَ: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)،[1] هو عمل كل شيء متقناً، ومن دون قصور أو نقص حيث إنه سيُعرض على أنظار "الشاهد الأزلي"، إيماناً واستشعاراً بأبعاد الإرادة والحس والشعور واللطيفة الربانية. فهذا هو الأساس والقاعدة والأفق الذي لا بد من بلوغه لدى أرباب الحقيقة.

أما الإحسان للآخرين شعوراً وفكراً وسلوكاً، فهو ظهور شعور الإحسان المتكامل في روح الإنسان وفيضانه وانتشاره وهو نتيجة طبيعية للشق الأول وهو تعبير الوجدان المنظم وفق الإحسان لما نظم لأجله. فهذا المعنى، أي جهة الإحسان المتوجه إلى الناس، دستوره (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأخيه مَا يُحِبُّ لِنَفْسه)[2] وبُعدُه الكوني الشامل لجميع المخلوقات هو (إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ).[3]

إن شعور الإحسان بمثابة مفتاح سرى لفتح دائرة صالحة. فالذي يفتح ذلك الباب ويدخل إلى ذلك الممر المنير كأنه قد صعد السلّم السيار، فيجد نفسه في عروج علوي ساحر. وفضلاً عن هذه الحظوة، إذا ما أعطى إرادته حقها واستمر في سيره فإنه يصعد في كل خطوة مرتبتين معاً. واعتقد أن البيان الإلهي ﴿هَلْ جَزَاءُ الإحْسَانِ إِلاَّ الإحْسَانُ﴾ (الرحمن: ٦٠) يذكّر بهذا.

---

١) البخاري، الإيمان ٣٧؛ مسلم، الإيمان ٧؛ أبو داود، السنة ١٦.

٢) أنظر: البخاري، الإيمان ٧؛ مسلم، الإيمان ٧١.

٣) مسلم، الصيد ٥٧؛ الترمذي، الديات ١٤؛ أبو داود، الأضاحي ١١١.

فقد قرأ سيدنا الصادق المصدّق ﷺ (هَلْ جَزَاء الإحْسَانِ إلاّ الإحْسَانُ) ثم قال: هل تدرون ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: يقول: هل جزاءُ من أنعمتُ عليه بالتوحيد إلاّ الجنة).[1]

إن شعور الإحسان كالسحب المثقلة بالأمطار، فما أن تحيط بأقطار تلال القلب، إلاّ وتنزل الألطاف الإلهية غدقاً. فيجد الإنسان نفسه في دائرة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس:٢٦)، ويعيش متذوقاً لذائذ كونه إنساناً. وفي هذا الموضوع، واردات إلهية آتية من منبع الفضل واللطف، تتجاوز واردات العمل والسلوك وتترتب على النيات الخالصة للقلوب. وهذا يفوق تصورنا وتفكيرنا أيضاً.

إن أصدق وسيلة توصل الانسان إلى الحق سبحانه هي القلب، وأعظم عمل قلبي هو الإحسان. فالإحسان أسلم طريق للتوجه إلى ربوع الإخلاص، وأصوب واسطة للوصول إلى روابي الرضوان، وهو شعور التمكين تجاه الشاهد الأزلي. فيشدّ الرحال إليه سبحانه يومياً مئات الألوف من المجهّزين بالإيمان المجنّحين بالعمل، الغارقين في التقوى. ولكن قد لا يصل إلى تلك الذروة إلاّ بضعٌ منهم أو لا يصل أحد. فالذين لم يصلوا إليها عليهم أن يستمرّوا في كدّهم. والذين وصلوها يدركون قبح ما لا يحبه الله، ويحسون به وينغلقون دونه، ويستشعرون أيضاً ما يستحسنه الله سبحانه فيكون جزءاً ضرورياً لفطرتهم، ويتكاملون معه، فيستنشقون "المعروف".

---

١) شعب الإيمان للبيهقي ٣٧٢/١؛ المسند للديلمي ٣٣٧/٤؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٧٩/٤.(٤٨٠/٧)

اللّهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللّهم اقسِم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، وصل وسلم على سيدنا سيد المحسنين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

البصيرة والفراسة

البصيرة تقابل في كتب اللغة والقواميس: الإدراك، الفطنة، الدليل، الشاهد، وفي كتب التعريفات والمصطلحات: انفتاح عين القلب، سعة الإدراك، استشفاف النتيجة ورؤيتها من البداية، مَلَكة تقييم الأيام الآتية مع اليوم المعاش.

وتكسب البصيرة لدى محاورة أرباب القلوب إحاطة وعمقاً آخر، كالآتي:

البصيرة منبع العرفان الوحيد في دلالة الإلهام والتفكير، وهي المرتبة الأولى لإدراك الروح كُنه الأشياء، فهي شعور وجداني يشخّص ويرى القيم الروحية في المواضع التي يتعسر على العقل تجاوزها لتعلقه باللون والشكل والمظاهر والكيفيات. فهي إدراك منوّر بالتجليات الإلهية، المكتحل بإثمد ضياء الأنس للذات الإلهية، ففي الوقت الذي تتعثر الإدراكات وتسرح هائمة مرهقة في وديان الخيالات، في هذا الوقت يختلي هو بأسرار ما وراء الأشياء مستغنياً عن الدليل والشاهد ويجول في المواضع التي يحار فيها العقل، فيبلغ حقيقة الحقائق.

البصر، صفة نورانية من صفات الله الجليلة، وبصيرة كل مستعد حسب حصته من هذه الصفة الإلهية وفق ميزان ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم﴾ (الزخرف:٣٢)

وإن سيدنا محمداً عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات له أعظم حصة في مثل هذا التجلي القَدَري، والأكثر استفادة من هذا النبع اللاهوتي والأكثر ارتواء منه، ومن ثم فهو الذي أفرغ إلهامات روحه في صدور الجموع الحاشدة خلفه، وهو المرآة المجلوّة الوحيدة لتجليات الحق سبحانه، فلا شبيه له في هذا ولا مثيل. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾(يوسف:١٠٨) بيان يشير إلى مدى خصوصية وعظمة استفادة سلطان الأنبياء ﷺ والتابعين له من هذه الموهبة والواردات الإلهية.

وبفضل هذا الإدراك النوراني، فإن المسافر الميمون إلى المعراج رأى في نَفَس واحد ما وراء ستار الوجود -الذي هو "عماء" للمحرومين من الإدراك- وجال فيه وطالعه كتاباً مفتوحاً أمامه.. وساح في ربوع الغيب حيث اللوحات المثالية لأركان الإيمان.. وخشع لصريف أقلام القدر الذي تنخلع له القلوب من الصدور.. ومرّ على خباءات الحور ومراتع الغلمان.. واستُقبل بحفاوة عند ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم:٩) في النقطة التي تتناغم فيها مشاعر "لا مكان ولا آن ولا أرض ولا سماء".. ووُدّع محمّلاً بالهدايا والعطايا.

وأحياناً يبلغ ما في البصيرة من ذوق المشاهدة إلى عمق آخر مع الفراسة، بحيث إن الإدراك ينتبه ويتيقظ إلى "تأويل الأحاديث" (أي النفوذ إلى الجوانب الملكوتية للأشياء واكتناه الأحداث)، ويحيا الروح في هذا المكان ذي الأبعاد الثلاثة، ببضعة أبعاد معاً. وإذا بالوجدان يصبح عينَ الوجود الباصرة، ونبضَه الخافق، وعقلَه المكتنه.

أما الفراسة التي ترد بمعنى الحدس والإدراك، فهي تعني تحول الإدراك إذعاناً والبصيرة أكثر عمقاً. فالعيون ذات البصيرة المفتوحة على تجليات نور الحق سبحانه، هي لذوي الوجوه المقمرة الذين لا ينخدعون بالظلال ويرون بنور البصيرة بجلاء تام حتى في أشد الأمكنة عتامة.. ويتجاوزون الالتباسات.. دون أن يتعلقوا بالمتشابهات قطعاً.. ولا تأسرهم الجزئيات، فيدركون حالاً ويشاهدون السكّر في قصبه، والأوكسجين والهيدروجين في روح الماء. ولا تحول قلوبهم إلاّ في إقليم "الفرق".

إن كل نقطة من سيماء الإنسان وفي وجه الكائنات، وكل كلمة، وكل سطر، لفظ مترع بالمعاني البليغة الكثيرة، بل هو كتاب مفتوح للذين يجولون في ظل قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ).[1] وبسرّ الحديث الشريف (اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ)[2] فإن ذوي المنزلة الرفيعة قد تربعوا في نقطة ترصّد يشاهدون منها أقطار الوجود ويتعاملون مع حقيقة الأشياء، فيطّلعون على الوجه الحقيقي للوجود بما وراء الأستار، وينثرون النور على الأحداث مكتنهين الوجه الحقيقي لكل شيء فيبرزونه للعيان، ويسعون في ربوع فردوسية من لذة إلى أخرى، وأنف الذين يقضون حياتهم حول الثقوب السوداء راغم.

فالوجود، في نظر الروح التي لا تفتح عينها ولا تغمضها إلاّ بالفراسة، صفحات متوالية من كتاب. وجميع الأشياء، الحية منها وغير الحية كلمات

---

١) **المتوسم**: هو الذي يعرف الوسم (العلامة) وهو العارف بما في سويداء القلوب بالاستدلال والعلامات (القشيري). (سورة الحجر:٧٥)

٢) الترمذي، تفسير سورة الحجر.

مشعة بألف معنى ومعنى. وإن وجه الوجود وسيماء الإنسان بيان واضح لا يخدع. فرجال القلوب يبصرون بما لا تقدر على رؤيته كل عين، ويسمعون بما لا تسمع به كل أذن من الآيات التكوينية لذلك الكتاب، ومن جملها التي تبرق بالنور، حتى أن أعظم الأدمغة تعجز عن تصوره. ففي كل لحظة يشعرون بالعجائب ويحدسون توقعاتها - كل مؤمن حسب درجته - ويتلذذون بها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

اللّهم إنّا نسألك قلوباً أوّاهة مخبتة منيبة في سبيلك، وصلّ وسلم على سيدنا محمد مرشد سبيلك وعلى آله وصحبه أجمعين.